www.lotusfreepub.com

المقدس سره

رواية

أحمد ضحية

ثلاثية صانع الفخار

الجزء الثاني

مقاطع من سيرة المقدس سره

المقدس سره

رواية

أحمد ضحية

إصدار: يوليو ٢٠٢٠

رقم الإيداع
000000000000

الترقيم الدولي ISBN
00000000000

الترخيص
مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي - نَسب المُصنَّف ٤,٠ - دولي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو موافقة دار النشر

الغلاف والإخراج الفني:
دار لوتس للنشر الحر

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

منشورات دار لوتس للنشر الحر

القاهرة الكبرى:
• ١٦ شارع محمد موسى متفرع من أول شارع فيصل - قرب محطة مترو فيصل
• ١٨ ميدان المساحة - الدقي
هاتف: 01091985809 - 01211313730

المغرب: الدار البيضاء
• ٢٧٠ زنقة ١٦ - حي البركة - مولاي رشيد
هاتف: 0664391261

مشروع النشر الحر
أول مشروع من نوعه يمنح الكاتب كافة الحقوق، والحرية الكاملة لنشر كتابه بدون احتكار لمجهوده في عملية تجارية.

للتواصل مع الدار والمشروع:
هاتف / واتس آب:
+2 01211313730 | +2 01091985809
الموقع الإلكتروني
www.lotusfreepub.com
البريد الإلكتروني
Lotusfreepub@gmail.com
صفحة فيسبوك
FB/lotusfreepub

إهداء

إلى زوجتي، شذى،

معا على الدرب الطويل..

أحمد

إذا كان هناك ثمة من هو مقدس سره، فهو صانع الفخار نفسه

- الكنداكة

***

الإنسان مدين بالاعتراف بالفضل لنفسه، ولهذا السبب بالذات فهو بحاجة إلى إله

- نيتشة

***

ترى ما الذي كان بإمكان البلاد الكبيرة انتظاره، من أفق تفكير كافق تفكير المقدس سره، بمتناقضاته ومفارقاته، سوى الرؤية المتشظية عن الإنسان والجغرافيا.. هذه الرؤية التي لا يوحدها سوى الاختلاف و التشوه والتمزق!

- جادين جانو

***

أيها الناس: إذا استولى الحق على قلب، أخلاه من غيره، واذا لازم احد أفناه!

- حسين الحلاج

***

وسوف يذيقون الشعب الأمرين. وسوف يدخلون البلاد في فتنة تحيل نهارها إلى ليل. وسوف تنتهي فيما بينهم. وسوف يقتلعون من أرض (البلاد الكبيرة) اقتلاعاً

- محمود محمد طه

١

- صلب صانع الفخار على «عيدان شجرة اللعوت سيئة الرائحة» في فناء كنيسة البلدة القديمة!

عندما أشعل الجلاد النار، في كومة جثة صانع الفخار المتناثرة أشلاء، وارتفعت سحب الدخان، لم يشم الناس رائحة اللعوت الكريهة! كانت سحب الدخان، التي انعقدت في سماء البلدة، تفوح برائحة مزيج، من الصندل والعنبر والكافور! فأخذ الأهالي مذهولين، يبحلقون في وجوه بعضهم البعض، وقد انعقدت ألسنتهم!

رفع جادين جانو رأسه عن المخطوطة، وأخذ يدعك على عينيه الجافتين. طريق طويل عبر أنفاق المخطوطة ودهاليزها، خباياها ومسكوتاتها.. اسقاطات ذاكرتها السرية والمعلنة..

طريق وعر عبره جادين جانو، خبير اللغات القديمة، بمعهد جار النبي جارو، لدراسات التاريخ والآثار؛ وهو يتقصى في أحزان صانع الفخار والخزين طبلة ام جبو، شجن البلاد الكبيرة كلها!

فيتأمل تلك اللحظة، التي تسللت فيها الراهبة (أم عيون) من الكنيسة خلسة، تتبع أحلامها وظنونها..

أحلامها نقطة الضعف، التي أدخلت المقدس سره، إلى حياتها، فاخترق قلبها كنصل، مخلفا ورائه جرحا ليس باستطاعة الزمن مداواته! أم عيون التي تعاني من كثرة الأحلام، رأت نفسها تتجول في البلاد البعيدة،

ما وراء البحر المالح، وتخوم الصحراء القاحلة.
مثلما رأت قوى خفية تشدها، لتجد نفسها تتجول في غابات الصعيد الاستوائية، تنتظر تسلل أشعة الشمس، من بين أغصان شجر الغابات الكثيفة، في منبع النهر!
في غضون هذه الأحلام.. رأت المقدس سره.. رأت وجهه الغريب!..
رأته هو ذاته الرجل الغريب، القلق ذو النظرات الثاقبة، كنظرات نسر مراهق تملؤه فتوة الشباب، فيحلق بعيدا بعيدا.. النظرات التي تكشف عن أدواء الطموح والقلق المزمن!

تأثرت بمظهره كثيرا في غدوه ورواحه، وشعرت بحضوره الطاغ.. داخلها يغويها، فأحست بدافع لا يقاوم للقائه، وتساءلت: ترى هل يتجاوب معها أم سيصدها؟
ثم لم تأبه! فقد قررت أخيرا أن تتبعه بحذر.
كانت كلما تقدمت منه خطوات، تبخرت مخاوفها مثل سحابة صيف يتيمة..
السحابة ذاتها، تلك التي في كل مرة تغشى سماء البلدة، ولا تلبث أن تنطفئ كفقاعة!
هذا الصباح كانت قد تجاهلت عمدا ارتداء ثيابها الداخلية، تحت ثياب الراهبات القطنية الطويلة الخشنة، التي تغطي كل شيء، فلا تكشف سوى استدارة الوجه!
ورغم أن حكة الثياب الخشنة ببشرتها كانت تؤلمها، إلا أنها كانت قد قررت أخيرا، أن تترك جسدها عاريا تحتها.

لفت ذلك انتباه صديقتها الكنداكة، فحاولت زجرها، لكنها لم تأبه! فخرجت تقصد الجروف، خلف الكنيسة تجني بعض احتياجاتها من خضار للطبخ!

كلما خطت خطوة، كانت تكوراتها السمراء الو افرة، التي بدت متماسكة وصلب، تهتز بقلق تحت ثياب الرهبنة الفضفاضة.

رأت هذه التكورات السخية بخيالها الجامح غزير الاحلام، تبدو في العرى الكلي، لجسدها الاسمر، تحت ثياب القطن البيضاء الطويلة، كأنها تطفو في نهر من الضوء!

شبكت أصابع يديها في بعضهما البعض، وسال عرق غزير من كل مسامها، بدت كمراهقة صغيرة امامه بوجهه الأبيض، وشعره الناعم الاسود، الذي عفره التسفار.

وقسماته الصارمة، ويده المتحفزة على مقبض السيف المحزوم، والمتدلي من خصره وثيابه الغريبة، التي لا تشبه ثياب أهل البلاد الكبيرة!

حقا كان هو «المقدس سره»، ذاته الذي لطالما رأته في احلامها! كان فمه مفتوحا قليلا، وقد ارتسم على عينيه استفهام كبير:

- لماذا تتبعينني؟ تمالكت نفسها جاهدة:

- لا ادري، وجدت نفسي اتبعك!

- اذن انت تلك العيون، التي كنت أشعر بمر اقبتها كل يوم، كلما مررت أمام الكنيسة؟

- نعم، انا..

- ماذا تريدين مني؟

بدا لها صوته الحذر بدائيا، لا يخلو من نبرة من إعتاد المخاطر، وإعطاء الأوامر..

- انت ماذا تريد مني، تلاحقني في احلامي كلما غفوت او نمت..

طريق طويل، ذلك الذي عبره جادين مع الراهبة أم عيون، و صانعي الفخار، وآل الخزين لعشرات الأجيال و..

ومع أهالي البلدة القديمة والمدينة الزاهية، وهم يأوون إلى مر اقدهم، أو يهجعون متوسدين احلامهم، وهم لا يزالون منشغلين بسباق الحمير السنوي، فخر مباريات البلاد الكبيرة، الذي ينعقد كل عام في البلدة القديمة، لما لها من مكان رمزية عميقة، في وجدان شعوب البلاد الكبيرة!

عبره معهم وهم يغادرون إلى الصعيد، بعد أن أجلاهم الحاكم العام.. يبحثون في داخلهم عن الوطن في ظلمة الغابات وعتماتها، واحراجها الموحشة!

هذه الغابات الكثيفة، التي اختارها أسلافهم وطنا بديلا، في تراجعهم المستمر من أقصى السافل، إثر ضغط الهجرات والغزو والإزاحة والإحلال..

كانوا يتراجعون صعودا في النهر، يشيدون اوطانا جديدة، داخل هذه الغابات العذراء المظلمة، يفتقرون لكل شيء، سوى أساطير الهزائم والمرارات والانتصارات الشحيحة، في حكايا الأسلاف!

ومع ذلك تشتد رغبتهم في الحياة، فيغنون أغنيات الصيد والحب وصانع الفخار، على وقع موسيقى المطر الاستوائي الغزير، تشاركهم القرود عزف الطبول والرقص تحت ضوء القمر، الذي يتخلل الأشجار الكثيفة!

طريق مليء بالشجن والدم والدموع، عبره أهالي البلدة القديمة، إلى أن حط بهم «الفلك» رحاله، وتبدى لهم صانع الفخار الأكبر، يحيط به كل أحفاده وآل الخزين عبر التاريخ!

جميعهم خروا ساجدين، لا يرفعون أعينهم إليه، يشرعون فقط مسامعهم، لينساب صوته العميق الآسر، الريان بالحنين يهديء لوعتهم! ويحدثهم عن وطنهم الجديد، أرض ميعادهم.. ويوصيهم خيرا بالحق، فالحق احق بان يحق!

بدت لهم أرض الصعيد.. هذا الوطن الذي تم نفيهم إليه، كغابة تملؤها الهواجس والاشباح والظلال والمخاوف.. تمد فيها كل أنواع الأشجار التي يعرفونها، والتي لا يعرفونها.. أعناقها إلى السماء البعيدة، موطن صانعي الفخار الاماجد!

كانت الأزهار والريحان البري، في كل شبر من هذه الغابة العملاقة، وكان عليهم أن يبدأوا من الصفر.. أن يعمروا هذا الوطن الجديد، ويشيدون فيه حياة بديلة. كانوا بعد أن هدأ صانع الفخار سرهم، قد بدأوا يتصالحون مع فكرة البدء من جديد، ولم يكن هذا خيارا ضمن خيارات، فهو الخيار الوحيد!

فكان أول شيء فعلوه أن بنوا ضريحا وقبة لصانع الفخار، شعروا بعد اكمال بنائهما بالسكينة، واخذت خياشيمهم ورئاتهم، للمرة الأولى تتنفس رائحة الفواكه والريحان البري ممزوجة في «(عشبة معونة النهر) و(أم بانقيقة) و(السعدة)».

٢

هتف هاتف:

- لقد أحرق الجلاد و الأهالي و العسس صانع الفخار، بعد ان صلبوه وعذبوه ورجموه، وقطعوا ايديه ورجليه! بدى كطفل وديع! حتى بعد ان تحول إلى كومة من الرماد!

قتل صانع الفخار بذات الطريقة، التي أعدم بها أسلافه، من كجور وحاخامات و قساوسة كنيسة البلدة القديمة، في الأزمنة الغابرة!

صلبه عسس الحاكم العام على صليب من خشب «اللعوت» سيء الرائحة وأشعلوا فيه النار!

صانع الفخار الملقب ب»صانع الفخار الأكبر» حملت به أمه على كبر. ظلت عاقرا لوقت طويل، فنذرت أن جاءها طفل ذكر، لن تعطيه اسم و ستهبه للخزين لخدمة الفقراء والمهدرين والمقهورين، وعندما حملت وجاء مولودها إلى الدنيا وكبر قليلا، شق عليها أن تنفذ نذرها!

دفعت به إلى سوق البلدة ليتعلم التجارة، وصبرت عليه، فلم يفلح. فاخذته إلى اهل الحرف والمهن والصناعة، وصبرت عليه فلم يفلح ايضا.. فعلت كل شيء، لكن لم يفلح! فاستيأست منه، فقال لها:

- يا أمي أنت نذرتني لخدمة الفقراء والمهدرين والمقهورين، فاوهبيني للخزين، توفي بنذرك.

فدفنت راسه في حضنها، ثم مسكت راسه بين راحتي كفيها، و ابتسمت دون أن تقول شيء، فقط نهضت واخذته من يده، متجهة به إلى حلقة الخزين.

بعدها لم يرها أحد، فقد ظلت دارها مهجورة خالية لا تسكنها سوى

العناكب وحمام الوادي وطائر البلدة الاسطوري!
أخذ الصبي الصغير، يخدم رواد الحلقة في «تكية» الخزين، الذين كان سوادهم فقراء ومقهورين ومهدرين، ويقضي حوائجهم، ويعتني بنظافة المكان، فيكنسه وينفض الغبار عن المخطوطات والمنحوتات، ويهيئه للانعقاد بالناس؛ الذين يجيئون طلبا لعلم الخزين! فيبسط «الفراوي» ويملأ «الركاوي» بالماء. كان ذكيا يحب الاعتناء بالتفاصيل!
وذات يوم كعادته، بدأ في تنظيف المكان، فعثر أثناء كنسه على رقعة من الجلد كتب عليها (صانع الفخار)، فأخذها دون أن يشعر وابتلعها، مدفوعا بقوة خفية لفعل ما فعل! وأخذ يتمتم:
- انه اسمي انا، صانع الفخار.. هو اسمي..
كانت تلك القطعة الجلدية؛ هي مرسوم الولاية للخزين كحامل للقب (صانع الفخار) المقدس الالهي المهيب، الذي حمله قلة منذ انشيء الكون وبسطت أرضه، ونصبت سمائه، ونثرت فيها النجوم!
بحث الخزين عن رقعة الجلد في كل مكان، فلم يعثر عليها، فغضب غضبا شديدا، ونادى في الجميع يسألهم عنها ويهددهم ويخيفهم بدعواته عليهم، حتى يعيدها من أخذها، فلاذوا جميعا بالصمت، فقال مغتاظا:

- من عثر عليها ولم يردها، قطعت يمينه. فلم يتكلم أحد. فقال:
- من سمعني أسأل عنها ولم يجبني، قطعت شماله. فلم يتكلم أحد. فقال:
- من سمعني ألح في طلبها ولم يردها، عذب ورجم وقطعت ارجله وصلب على شجرة لعوت سيئة الرائحة، وحرق، وذري رماده في هواء البلدة.
فلم يتكلم أحد.

٣

سأل الجنجويدي راكب الفرس السوداء، الأهالي المتجمعين على مبعدة من الأنقاض المحترقة لكنيسة البلدة القديمة:

- من رأى منكم صانع الفخار الحفيد؟ فرد أحدهم:

- لقد مات مقتولا منذ اليوم الأول للغزو.. تعالى صوت متوتر من خلفهم:

- يقال أن بعض الأهالي عثروا على جثته، على مبعدة من «الجاسر» فدفنوها محل شجرة اللعوت، التي حلت محلها النخلة! ارتفع صوت احدهم:

- لا بل يقولون إنه غادر إلى دار الريح، قبل الغزو بأيام!

- بل غادر إلى الصعيد يا رجل، جميعهم يقولون ذلك!

- ومن ذاك الذي دفن تحت النخلة، أليس هو؟

- كيف يكون هو؟.. هو لايموت؟!

كانت رأس الجنجويدي تستدير تجاه كل متحدث، وعيناه تتسعان دهشة. لا يصدق ما يتحدث به الجمع!.. جز أسنانه.. نفرت عروق جبينه وعنقه.. ترجل عن فرسه، و انتصب وسطهم كمارد ممشوق.

ولشدة خوفهم، خيل لهم أن عنقه تستطيل وتستطيل، حتى يختفي رأسه خلف السحاب! ارتعدت فرائصهم من الخوف وهو يصرخ في وجوههم كالمجنون:

- هل جننتم؟ لا يموت؟ اي رجل هذا الذي لا يموت؟ فقال أحدهم في

خوف:

- انه مربوع القامة. فقاطعه اخر:

- لا بل طويل جدا، حتى يقال انه يمد يده يشوي السمك، الذي تهبه له صديقاته حوريات النهر، في الشمس! تحسس الجنجويدي سيفه، وهو يستشيط غضبا:

- جميعكم كفرة كاذبون، ويبدو أن أحدكم لم يراه، أو يعرفه!

فاكد احدهم:

- كل من رآه للمرة الأولى، كانت تلك هي المرة الأخيرة! فقاطعه أحدهم قبل أن يسترسل:

- بل لم يره أحد لا اولا ولا اخيرا، فهو لا يلتقي البشر! فكيف يتحدث معهم؟!

كان واضحا أن الجنجويدي، قد أصابه اليأس والقنوط، فاستسلم.

شد لجام فرسه، وقفز على صهوتها، و انطلق مبتعدا يتمتم بكلمات مبهمة، تاركا الأهالي خلفه يصطخبون، حول أمر صانع الفخار! وفيما هم يتغالطون، كان الخزين الحفيد، يلتقي لحظتها صانع الفخار، ويخبره عن قتل الجنجويد لحبيبته «الكنداكة»!

اتكأ صانع الفخار على ذاته، وهو يشعر بنصل حاد يخترق قلبه.. تماسك قليلا قليلا قبل أن يسأل الخزين:

- و أين كنت أنت وقتها؟ ألست حارسها؟

لم يجد الخزين جوابا، ود لو قال له (وهل استطعت انا حراسة نينا لاحرس الكنداكة) لكن لم يجرؤ، فاشاح بوجهه الشاحب، حتى لا تقع عينيه على عيني صانع الفخار.

كانت أعماقه مرتبكة، مهزوزة. نكس رأسه ثم عاد فرفعه، وجاهد بشفتين مرتعشتين كي يقول كلمة واحدة، لكن جهاده لم يثمر، فخر متهالكا على ركبتيه، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة!

حدق فيه صانع الفخار مليا، وهو يتراجع إلى الخلف، دون أن ينبس ببنت شفة. وكفقاعة في ذلك المساء الحزين انطفأ!.. كان قد اختفى تاركا الخزين وحده، الذي انفجر في عاصفة من البكاء المر، تتناهشه المخاوف والهواجس والظنون!

فيما كان «الفلك» الذي يقل حبيبته «نينا»، قد توغل عميقا في النهر، حيث بدأ مطر خفيف مصحوب بدرجة من الرطوبة، لطالما ألفها أهل البلدة القديمة، يتساقط..

كانت الرطوبة تمتزج بالانفاس الساخنة للمغادرين، وتحيل الجو داخل الفلك دافئا ولكن خانقا، بينما ريح هادئة تتلاعب بالفلك، حتى ليبدو كالمحمول على محفة!

شعرت نينا بألم شديد في رأسها، يكاد يقسمه نصفين. كان الشعور بالإعياء الذي هيمن عليها، منذ تلك اللحظة وهي تودع الخزين، قد جعلها تحس انها تودع روحها!

لحظتها تملكها شعور قوي؛ انها لن تراه مرة اخرى، وان حياتها باتت قصيرة جدا، و أنها لا تستحق أن تعاش!

حاولت أن تتمالك نفسها، فاتكأت على أحد المجذفين في الجانب الأيمن من الفلك، عند نهايته وهي تنظر إلى النهر، الذي بدا لها أن لا نهاية له! تملكها احساس مميت بالإعياء والتعب، فاتكأت على جدار الفلك تخفف ثقل جسمها المتهالك. وكان الليل يدنو حثيثا حثيثا.

تلفتت حولها في في زحام الفلك، تتفحص الأهالي الجالسين والو اقفين و المتكئين.. حاولت أن تتبين هذه الوجوه، التي عاشت بينها.. هؤلاء الذين ولدت في كنفهم، ونمت وترعرعت وسطهم، تشعر بهم الآن غرباء عنها!.. لا تعرفهم!!

كان الألم في رأسها يشتد، كأن الف مطرقة تطرق عليه بعنف وشدة!

بدأت حرارة جسمها ترتفع، والعرق يتصبب غزيرا؛ يمتزج ببلل المطر في ثيابها. لم تستطع الاستمرار في الوقوف، فانهار جسمها وسقطت مغمى عليها!

٤

وبعد أن ابتلع الصبي اليتيم، رقعة الجلد. وتعايش الخزين مع حسرته عليها، أخذ يوليه عناية خاصة، مدفوعا بقوى خفية، أن يمنحه كل معارفه وعلومه، حتى لم يبق لديه شيء يمنحه له.

وكان ذكاء الصبي حادا يلتهم المعارف والعلوم، بيسرلم يره الخزين في احد من قبل. بل كان أحيانا يطرح على الخزين مسائلا تتشكل عليه، فيساعده الصبي، فتحل في يسر!

وهكذا مضت علاقتهما تنمو؛ وتتعمق بمرور السنوات. وعندما تعدى سن الرجولة، بدأت تطرأ عليه تحولات، وكان الخزين عندما يعطيه الفضة ليشتري طعاما للفقراء، كعادته خلال السنوات الطويلة؛ التي قضاها في رعايته، كان الناس يشكون منه؛ فعندما يمضي إلى السوق ويسأله البياع:

- ماذا تريد؟

يرد مهمهما بكلام لا يفهم منه سوى كلمة واحدة:

- الحق، الحق...

ثم يأخذ لنفسه ما يريد ويمضي، وتكرر الأمر مع كل البياعين. الذين بدى لهم دائما كالسابح في ملكوت وحده، لا يعيش مع هؤلاء الناس، في نفس المكان والزمان والحياة!

فضاق به أهل السوق زرع،ا وجاءوا إلى الخزين يقولون:

- يا سيدنا لا ترسل لنا هذا المولد، لقد أعيانا دون أن نعرف ما يريد!!
فينقل الخزين هو الآخر بصره بينه وبينهم، ويلوذ بصمت عميق، إلى أن يعييهم الانتظار فينصرفوا، وينصرف بعدهم صانع الفخار، تأخذه قدماه إلى قيف النهر، فيجلس ويحدق بعينيه في القلعة، التي تبعد على مسافة ازرع من مجلسه!
كانت القلعة التي أحيطت بأشجار الهشاب والسنط، بأشواكها الحادة التي تتألق على ضوء القمر، ليس ثمة من يعرف تاريخ تشييدها بالتأكيد، إذ تضاربت روايات عدة، حولها.

بعد عشرات السنوات من هذه اللحظة، ستصبح هذه القلعة نسيا منسيا، إلى أن يعاد بناؤها مرة أخرى، عندما تخضع البلاد الكبيرة، لسلطان المقدس سره!
يعود تاريخ هذه القلعة، في بعض الروايات الشعبية، إلى عهد النبي سليمان، لتكون حجراتها الضيقة (سواجنا) للجن العصاة.
لكن روايات شعبية أخرى، تنسبها إلى تلك الفترة السحيقة، قبيل حريق روما بقليل، عندما أرسل الحاكم نيرون سنة ٦٤م جيوشه لغزو البلاد الكبيرة، لكن بعد أن نشب الحريق، غير رأيه! وطلب من جيشه العودة، للمساعدة في إعادة بناء المدينة المحترقة!
وبينما يتفق كثيرون، أن أول تجديد لها، تم من قبل المماليك الناجين من مذبحة محمد علي باشا في ١٨١١، يؤكد آخرون أنها حملت اسم الخواجة «كوبر» الذي كان قد سجن فيها، من تبقوا على قيد الحياة، من اتباع صانع الفخار، الذين ثاروا على الحاكم العام، في ١٩٢٤. شيدت القلعة

على مبعدة من النهر، وظلت سجنا رهيبا تحيطه الحكايا والقصص. عن أجيال من اتباع صانعي الفخار، ظلت تقضي نحبها، بين جدرانها الصماء!

وهؤلاء، حتى عندما كان يتم دفنهم، في المقابر الجماعية المجهولة، كانوا لا يزالون مكبلين بالقيود.. يرسفون في السلاسل!

ومع ذلك ظلت أشباح مشاعرهم ومعتقداتهم القوية، متقدة و حية لا تموت! إذ لم تتوقف فيهم رغبة الحياة، ولم تكف أرواحهم الهائمة، عن طلب الحق ومقاومة الغزاة.

كانت واجهة القلعة، مبنية من حجارة تلك الجبال، التي سيطلق عليها الأهالي بعد عشرات السنوات، اسم جبال الأولياء. وذلك لأن أولياء البلاد الكبيرة، اجتمعوا عندها ليلة صلب واحرق صانع الفخار الأكبر، و قرروا خراب البلاد الكبيرة!

كانت معتقلات القلعة، خالية من النو افذ.. فقط كوات صغيرة ذات حواف مدببة، تطل على النهر، حيث يفيض هبوب النسيم، متسلقا جدر القلعة من آن لآخر، ليذكر السجناء، الذين لا زالوا على قيد الحياة، بان هناك ثمة عالم آخر، خارج الحجرات الضيقة، التي حبسوا فيها!

ظلت القلعة منذ عهد بنائها الأول، تمثل تهديدا سافرا للأهالي، إذ كأنها تر اقبهم، بإطلالتها الرهيبة، على بيوتهم البعيدة المتفرقة، التي تبدو منها، ككومات تراب أو قش، صغيرة ومتناثرة.

على بقايا الجدر الخارجية لهذه القلعة، التي لطالما تكسرت عليها أمواج النهر، تسلقت نباتات الجروف الزاحفة الصخر وتسللت بين الشقوق، حتى استحالت هذه الجدر إلى طحلبية خضراء!

وعلى الجدر الداخلية، نحت السجناء شكلا متكررا لشجرة لعوت وحيدة، قوية، معزولة، و اشكالا اخرى عديدة لكائنات غريبة، ورسموا نهر البلدة القديمة، و انهار البلاد الكبيرة، التي لم يعد لها وجود.. بعد أن ردمتها الرمال عبر العصور!

شجرة اللعوت Acacia Nubica سيئة الر ائحة تلك، والتي قبل عشرات السنوات، كان قد جلبها «الخزين طبلة ام جبو الملقب بالخزين الاكبر» في طريق عودته من دار الريح، وزرعها هنا في هذا المكان بالتحديد:

على بعد ازرع قليلة من «الجاسر» المتفرع من النهر، الذي يخاصر البلدة القديمة، جهة دار صباح، قبالة ميل زاوية الشروق، في قبة السماء. عند الأفق الرحيب! بالضبط هناك!

حيث بإمكانها من هذا الموقع، أن تستقبل الشمس على نحو معين، وترسل اشعتها خلال مظلة أغصانها، لتطل على البلدة القديمة، كأشعة فاترة، تجسد الطاقة اللامتناهية للحياة، دون أن تحرق الأهالي، المنغمسين في سباق الحمير السنوي!

في الأمسيات التي تنشط فيها الريح العاصفة، لم تكن شجرة اللعوت تهتز أو تميل، فتكتفي الريح بأن تتخللها، لتعبر جهة كنيسة البلدة القديمة بالذات! تصفع كو اتها و أبو ابها ونو افذها الخشبية العتيقة.

كأنها تزجر الراهبات، اللو اتي كن يقفن خلف ابواب ونو افذ عنبرهن الصغير، يتزاحمن ليحتلن ببصرهن الفتحات والشقوق والثقوب، يتفقدن ما يجري في الخارج!

لطالما رمن بنظرهن إلى الشارع الفسيح، الذي يفصل البلدة القديمة قسمين، ودواخلهن تضطرم بنار غامضة المصدر! يشتد اوارها في الكنداكة وأم عيون اكثر من الاخريات!

تسلية وحدتهن المقدسة القاسية، إلقاء البصر عبر هذه الفتحات، و الذي كان يرتد في كل مرة وهو حسير، فيعدن لروتينهن اليومي: يغسلن ويطبخن ويكنسن، وقد يمضين إلى چروف الكنيسة ينظفن الخضروات والبطيخ والشمام من الحشائش، ثم يتفرغن لتعاليم ابن الرب يسوع، وهن يسألنه تخليصهن من هذه المشاعر الغامضة، التي تنتابهن كلما تسسلل بصرهن، فرأى شباب البلدة اليانع ورجالها المفعمين بالحياة! لكن الراهبة «ام عيون» يبدو انها ملت انتظار المخلص يسوع، ليخلصها من تلك المشاعر الغامضة، إذ من ثقبها لفت نظرها وجه رجل فتي، غريب، ليس من الوجوه المألوفة في البلدة..

كان يمر كل يوم عابرا أمام نظراتها المسترقة، فتحينت الفرص وتبعته، مدفوعة بنداء خفي غلبها مقاومته!

كان الرجل الغريب هو «المقدس سره» الذي جاء وقتها متنكرا، على رأس فرقة استطلاع سرية انتشرت في البلاد الكبيرة، تمهيدا لغزوها! ظلت تتبعه بحذر، إلى أن بلغ شجرة اللعوت، قرب الجاسر، وتجاوزها إلى النهر، كان يشعر بها تتبعه!

وعندما التفت يواجهها، التفت معه تيار مزيج من رائحة السعدة وام بانقيقة، وعشبة معونة النيل!

لفح وجهها محمولا على سواعد نسيم لطيف، يبعث في النفس خدرا لذيذ التردد! يهديء من قيظ أبخرة النهار، الذي لا زالت تتميز به الأرض المعطونة في الظمأ و الغموض!

كانت مدفوعة بهاجس روحها، التي لطالما حدثتها بلقاء شخص غريب ما! شخص يخبئه لها غدر غريب لا محالة و اقع، فقد سطر بقلم القدرة أن

يكون!
اندفعت نحوه و اندفع نحوها..
كان هو الآخر يريد هذا الجسد ذو العينين الواسعتين، والشفتين المنقوعتين في دم المسيح! وكانت تراه الجسد الغامض ذاته، الذي اقلق في الحلم كيانها، واستنزف جسدها المصلوب تحته قطرة فقطرة.
كان ذاك لقائهما الأول، الذي لم تراه بعده، إلا عندما اقتادها جنده بعد وقت ليس قصير، مع الكنداكة وزميلاتها الراهبات!..
لم يقتلها.. لم يسعد بلقائها فيبقيها معه! رغم حبه لها. فقد أدرك بفراسته أن هذا الحب سيقتله، أعتق والديها و فضل الخلاص منها، بإهدائها لواليه على دار الريح!!
انطفأت الراهبة ام عيون، كفقاعة استنشق المقدس سره شذى بوحها الشجي، لمرة واحدة، وقذف ما تبقى منها إلى دار الريح، تتجول في ذاكرتها، بين تلافيف ذكرياتها اليتيمة، تبحث عن مصدر بري، متوحش لنداء خفي يسكنها، يشملها بالغفران، دون جدوى، فينهكها المسير الطويل، في سباسب دار الريح ووهادها ووديانها، تحمل بداخلها نصف الكنداكة، التي شقها المقدس سره بسيفه نصفين!
يخطر ببالها صانع الفخار الحفيد، فيجيئها طيف صانع الفخار الأكبر، مقتحما حزنها وشجنها، فتسأله:
- من انت؟
فينظر إليها بعينين حزينتين دون أن يرد، ثم سرعان ما يتبدد الطيف.. يختفي وتتلفت حولها دون جدوى ورأسها تدور!
كان صانع الفخار الأكبر قد زاد به الوجد، فساح في الجبال ستة أشهر، وعندما عاد وجد حلقة الخزين مزدحمة بالناس، والخزين يخطب فيهم،

لم يكن على عادته، فرغم فصاحته التي اشتهر بها، و جعلت كلامه مفهوما لكل الناس مهما علا أو دنى شأنهم، إلا أنه كان يقول كلاما كثيرا، لم يفهم منه أحد شيئا!

وبعد أن مل الناس محتارين في أمره، قاطعوه:

- يا سيدنا لم نفهم شيئا مما قلت. فرد عليهم:

- انا ايضا لم افهم ما كنت أقول.. كان الكلام يجري على لساني دون أن أعيه، كأن أحدا يمليه علي.. تلفتوا حولكم إذا وجدتم باكيا اطلبوه، فقد فهم..

فتلفت الناس حولهم، فلم يروا سوى صانع الفخار الأكبر، يبكي بكاء حارا فسألوه:

- هل فهمت شيئا؟

فرد باكيا:

- نعم

- إذن تقدم فسيدنا الخزين يريدك، لتشرح له ولنا.

و افسحوا له حتى وصل السرادق، الذي يعتليه الخزين، الذي بادره قائلا:

- والحق، لقد وصلت منزلة لم يبلغها أحد قبلك، ولن يبلغها أحد بعدك!! الزم نفسك واكتم السر! فرد عليه صانع الفخار الأكبر، وهو لا يزال منخرطا في البكاء:

- لا أقوى على الكتمان، اخذ عقلي مني، وقد سلبني عني، ثم نظرت منه إليه، فلم ارى الكون إلا هو! ثم انفلت خارجا وهو يركض وبكاءه يشتد! والناس حول الخزين يرددون:

- اصيب الرجل في عقله.. اصيب الرجل في عقله!

٥

قيل أن الصليب الذي صلب عليه صانع الفخار، صنع من عيدان شجرة اللعوت الجافة تلك! ما دفع بأهالي كثر.. بل أتباع مخضرمين لطائفة صانع الفخار، الاعتقاد بأنها شجرة ملعونة، معضدين قناعاتهم الراسخة برائحتها الكريهة النفاذة، إذ كانوا يرددون حكمة أسلافهم الخالدة:

- لا يخرج من الكريه الا كل كريه!

وكونها شجرة غريبة، لا تنتمي لهذا الجزء من البلاد الكبيرة، فموطنها هو الاطراف الصحراوية البعيدة لدار الريح، والسافل الأشد جفافا من الصحراء القاحلة، ما وراء البحر المالح!

كان ذلك وحده كافيا للعنها!

إثر اختفائها المفاجئ في احدى الصبيحات، خالج البعض شعور انها ربما حنت إلى موطنها الاصلي، فغادرت في جنح ظلام البلدة! كان أطفال البلدة القديمة، المغرمين بصيد الطيور، يستخدمون أشواكها الطويلة الحادة، كاسنة لسهام البوص، التي يصطادون بها الطيور الصغيرة المهاجرة!

من جهة النهر.. حين تلفح البلدة الرائحة الرطبة الدافئة، المشبعة برائحة (ام بانقيقة والموليتا وعشبة معونة النيل)، عندما تهب النسائم المترددة، كانت الرائحة النفاذة الكريهة لشجرة اللعوت، تهدد خياشيم

البلدة بالغثيان، فتعتري الأهالي رعشة خفية، ويشعرون بانقباض في نواة القلب!

ورغم أن أهالي البلدة، لشد ما كرهوا هذا الهواء الراكد، إلا أنهم، بمرور الوقت تصالحوا معه، لكونه يحصر رائحة اللعوت، في الحدود مابين الجاسر والنهر.

شجرة اللعوت هذه.. كانت في موطنها الأصلي، تنمو عادة دون ساق، إلا أنها هنا ومنذ الأيام الأولى لزراعتها على يد الخزين، كان لها ساق واضح بين الفروع!

في الصبيحة التي سبقت غزو الجنجويد للبلدة القديمة بصبيحتين، فوجئ الأهالي، باختفاء شجرة اللعوت، وكانت قد نمت في محلها، بطريقة غير مفهومة! نخلة طويلة سميكة الساق!!

ورغم أنهم لم يكنولشجرة اللعوت، أي شعوربالود يوما، الا أن اكتشافهم لاختفائها المفاجئ، بعث فيهم شعورا مزعجا بالانقباض والقلق! ولولا أنهم انشغلوا بقية اليوم، بسباق الحمير الذي كانوا يقيمونه صيف كل عام، يتبارون مع قرى وبلدات ومدن، البلاد الكبيرة الأخرى، لما خفت حدة الانقباض، تلك التي بعثها اختفاء الشجرة!

وهكذا مضى ذلك اليوم والذي يليه والأهالي منتشين، تحت تأثير النتائج التي حققوها في السباق، وتحت وطأة مريسة العيش وعرق البلح، اللذان هيمنا على وعيهم، لم يأبهوا لجحافل الجنجويد، التي كانت تتأهب للهجوم، بعد أن اقتربوا كثيرا، من أبواب البلاد الكبيرة! الأمسية التي سبقت غزو الجنجويد للبلدة القديمة، اشتدت فيها الظلمة، وامتدت لتغمر دروب البلدة وزقاقاتها، واختفى الأهالي المنهكين من سباق الحمير

من الطرقات، وتسللت أضواء الفوانيس الخافتة من شقوق النوافذ الخشبية العتيقة، وبدأت ظلال صانعي الفخار تنتشر، تجوب الشوارع كأنها تتبع مواكب جنائزية!

جاءت أطيافهم من مختلف العصور، يبدو على ملامحهم قلق عميق، يخفق في ظلمة مغبرة وهم يعبرون!

طائفة صانع الفخار الحفيد والخزين، التي كرست نفسها للتعاليم والدعوة، لم تكن معدة لمواجهة جيش المقدس سره، أو خوض أي نوع من القتال.

فلم يكن أمام أفرادها، وأمام صانع الفخاروالخزين سوى الاختفاء، بعد أن جد المقدس سره في البحث عنهما، وعن كل من يشتبه في انتمائهم للطائفة!

إذ كان أول شيء فعله المقدس سره، أن أمر عيونه بالبحث عنهم وملاحقتهم في كل مكان!

شخصيتي صانع الفخاروالخزين، اللتان لم تكونا شائعتان في وعي الناس في هذا العصر، سوى كاسمين مألوفين، اربكتا جنجويد المقدس سره، فأصبحوا يمسكون كل من يرون في سمته الوقاروالجلال، ظنا منهم أنه صانع الفخار أو الخزين، فقد كان واضحا أن لا أحد يعرفهما!!

وقتها كانت طائفة صانع الفخار تعد عدتها، وتنتقل من مكان إلى مكان.

ومتجهين نحو صعيد النهر، حيث تتهدد « الدهاريب» «نقارة الورل» التي لم يكفوا عن عزفها، منذ وطأت جيوش الجنجويد أرض البلاد الكبيرة، اخذ اتباع صانع الفخار، يلملمون حاجاتهم على عجل، تتآكلهم الحسرات!..

يغذون المسير، ريثما تهدأ خواطرهم، فيفكرون في الإجابة عن سؤال:
- ماذا يتحتم عليهم أن يفعلوا، لمواجهة هذا الغزو الجنجويدي المخيف!
وما أن تطأ أقدامهم مكان جديد تجاه الصعيد، حتى يبدأون في ترتيب أشيائهم الفقيرة: الخيام، عناقريب القد، سروج الخيل، أكباس الجلد، الأجربة والسعون.
وفيما تنشغل خيولهم برعي (الجزووالشوقارة)، كانوا يفكرون في طائفتهم كقلة قليلة، لا تشكل خطرا حقيقيا على جيش المقدس سره، إذ لم يعدها صانع الفخار أو الخزين يوما للقتال!
لذا بدأت فكرة تنظيم أنفسهم كنواة فرقة مقاتلة، تحتل حيزا كبيرا من تفكيرهم..

- الصعيد هو المكان الآمن الوحيد الآن، هناك حيث الغابات تحجبنا عن العيون، يمكننا البدء من جديد.. يقول أحدهم فيرد آخر:
- نعم.. سقطت كل حاميات البلاد الكبيرة، لا مكان آمن لنا ولدعوتنا سوى الصعيد..
وهكذا يغذون في المسير، مستنشقين رائحة عشب النيل المبتل بالدعاش.
اشتهر المقدس سره منذ طفولته بين أقرانه، هناك.. ما وراء البحر المالح وخلف تخوم الصحراء، التي تليه، بالدهاء وسعة الحيلة! منذ كان تلميذا نجيبا لأحد الشيوخ، الكبار، ممن توفر لهم العلم والمعرفة.
وقبيل تكوينه لطائفته التي أطلق عليها اسم (الجنجويد)، عمد إلى عقد تحالفات عديدة مع ملوك الطوائف الأقوياء، الذين كانوا يحكمون تلك البلاد، تحت سلطان أميرواحد، يشرف عليهم من قصره المنيف!

استجاب أمراء الطوائف الاقوياء، لرغبة المقدس سره، بتجييشه لغزو البلاد الكبيرة، بعد أن وعدهم بالأموال والجواري والعبيد! ورغم الهواجس التي انتابتهم، من قوة ونشاط طائفته المتنامي، الا انهم زودوه بالعدة والعتاد. فمن جهة ارادوا ابعاده من بلادهم ماوراء البحر المالح وتخوم الصحراء، حتى لا يكون مصدرا للقلق!

ومن جهة أخرى، رأوا أنه لو نجح في مسعاه، ووفى بوعده. ستكون البلاد التي يحتلها، مصدرا مهما للمال والرجال، اللذان تحتاجهما دولتهم الطموحة، ويتوسع حكمهم في أراض جديدة، لنشر الدين الجديد!

وهكذا بدأ المقدس سره زحفه المقدس، لإحتلال البلاد الكبيرة.

عرف المقدس سره بين جنده بحبه للنساء، لكن أمر معاقرة الخمر، وتدخين ذلك النوع الغريب من الأعشاب الجافة المخدرة، كان سرا ضرب حوله الف سياج، فلم تعرفه سوى نسائه وسراريه الكثيرات، منذ سنوات مراهقته في مضارب قومه، إلى أن فاضت روحه في البلدة القديمة، عند منحدر النهر بعد عدة عقود!

مخلفا وراءه أربعة عشر زوجة، و مائة من السراري والإماء، فضلا عن نسائه الأربعة، اللاتي حصل عليهن جميعا بطريقة غير معتادة: فزوجته الكبرى أم عياله السبعة الذكور، إبنة ملك دار الريح، كان قد تزوج بها، أثناء حملاته الاستطلاعية الأولى، قبل الغزو والاحتلال! إذ وجده جند ملك دار الريح، بعد أن هجم عليه ورجاله اللصوص وقطاع الطرق، مضرجا بدمائه، حتى ظنوا انه لا محالة معقور! لكثرة الدماء التي كانت تسيل من ساقه المكسور، الذي كانت تتلاعب به الريح!

عندما حملوه على ظهر انثى الحمار العجوز! وبعد أن طببوه، ومكث معهم

ردحا من الزمان، وأصبح من جلساء الملك، رأى فيه الملك صفات أحبها، كان المقدس سره بدهائه، قد قصد أن يبرزها ويلهمه بها، ويوحي إليه بالقرار، الذي ظل ينتظره، منذ أخذ الملك يحدثه، عن مبلغ قلقه على إبنته العزباء، التي قتل زوجها في احدى حروبه مع قبائل الجوار!

اما زوجته الثانية من دار صباح ابنة أحد البدو الفقراء، أهداها إياه عندما كان في ضيافته كغريب، مخفيا أمر إستطلاع الأخبار بنفسه، قبيل الغزو بوقت ليس قصير. أنجبت له هذه المرأة ستة بنات وستة أولاد.

زوجته الثالثة سرقتها طائفة الاستطلاع من إحدى القرى الصغيرة، في أواسط البلاد الكبيرة أسفل النهر، بينما كانت ترعى غنما تها على مقربة من أشجار النخيل.

وقد أنجبت له ما يزيد عن العشرة بنين وبنات!

اما زوجته الر ابعة فقد كانت من صعيد النهر، ابنة أحد ملوك القبائل الأشداء، عرف عنه أنه كان في شبابه مقاتلا شرسا، اشتهر بمصارعة النمور والأفيال والاسود! ولم يكن ثمة من يجرؤ على اقتحام دياره. وفي إحدى الليالي المقمرة بينما هي وصويحباتها يستحمن في النهر، على مبعدة من القرنتيات و اصدقائهن التماسيح المشاغبين، هجمت فصيلة الاستطلاع عليهن واختطفهن، فانتقى المقدس سره من بينهن ابنة الملك المصارع وهجم على عريها البكر!

والتي كانت في ذهول تام، لم تدرك ما حدث لها وصويحباتها الا بعد مرور وقت طويل، كان يكفي لانجاب بناتها الثلاث و أولادها الذكور الأربعة!

ابنة الملك مصارع الأفيال، هي في الحقيقة الغائبة جدة (نينا) التي عشقها الخزين الحفيد بعد عشرات السنوات!

من هؤلاء النسوة الأربعة، اللاتي مثلن غالبية دماء البلاد الكبيرة واعراقها، من أقصى دارصباح إلى اقصى دارالريح، ومن أقصى السافل إلى اقصى الصعيد، تعضدت النوية الأساسية لشعب البلاد الكبيرة! هذا الشعب المزيج، الذي تجري في عروقه عشرات الدماء، وهو التصور الذي للمفارقة، لطالما حلم به صانع الفخاروالخزين معا، مذ كانا يعلمان الأتباع، معنى التلاحم القومي في رسالات الرسل!

لكن ظل دائما ثمة نداء خفي، في مركز هذه النوية، يلقي احيانا بطيوف حنين بعيد للصعيد وغاباته وتماسيح الأنهار والقرنتيات والأفيال والنمور، وكل الاصدقاء وصويحبات ابنة الملك المصارع من قرنتيات و أفراس نهر!

رغم القطيعة والانبتات عن أصولهم، الا أن وعيهم الموروث، كان لا يزال يحتفظ باسروداته الخاصة، التي تنتمي إلى عالمهم القديم. في وطنهم الذي أنبتوا منه!

لذلك كان كثيرون في مختلف العصور التالية لغزو الجنجويد للبلاد الكبيرة،عندما يضيق بهم الحال يحفرون أنفاقا تحت الجدار العازل، الذي شيده المقدس سره من أقصى دار صباح إلى اقصى الصعيد، يستجيبون لذلك النداء الخفي!

نساء المقدس سره الأساسيات الأربعة في الحقيقة، انجبن ما يزيد عن الأربعين بنتا وولدا، كما انجبت نساءه المائة واربعتاشر الاخريات مايزيد عن الخمسمائة بنت وولد، وهكذا من صلبه هووحده ولد شعب صغير، يبرز منه قادة جنجويد جدد وحكام عامين من آن لآخر، عبر العصور

يشيعون التوتر والقلق في البلاد الكبيرة!

قبل أن يولد المقدس سره بعشرات السنوات، كان صانع الفخار الأكبر، قد طوى الزمن وراءه، فيما رأى من مبكياته، التي أقضت مضاجع الأهالي وقتها، فقاموا إلى الخزين يجتمعون به، وقالوا:

- يا سيدنا، اعلم أن صانع الفخار قد اتعبنا، إذ يقول ما لا يدخل العقل، فشغل بالنا واوقف حالنا، ولهانا عن بيعنا وشراءنا، فنسألك بالحق أن ترده عنا.

فقال لهم الخزين:

- انصرفوا، لاتحملوا هما، إذا حضر نؤدبه.

فلم يمض سوى وقت قليل، حتى حضر صانع الفخار، بين يدي الخزين وهو يقول:

- سمعا وطاعة. انعقد حاجبا الخزين:

- إذن علمت بطلبي لك؟

- سمعت صوتك يهتف بي ان احضر. أطرق الخزين براسه:

- ماهذا الحال؟ الناس لا يكفون من شكوك لي.. لقد اتعبتني و اتعبت نفسك و اتعبت الناس، فارجع عما انت فيه والا هلكت.

فقال باكيا:

- كل هذا لانني اطلب منهم توزيع الذهب والفضة، التي يكنزونها على الفقراء الذين لا يجدون ما يأكلون، ورب صانع الفخار لا أكف عنهم، إلا يحقون الحق.

وبينما هما في أخذ ورد، هجم جند الحاكم يريدون اعتقاله، فانتزع منديل أحدهم يجفف به دموعه، ثم قذف به في الهواء وطار معه وغاب، تاركا الناس في ذهول تام!

٦

بعد أن اكتملت ترتيبات المقدس سره لغزو البلدة القديمة والمدينة الزاهية، هجم جنجويده بغتة، و ارتكبوا من الفظائع، ما أصاب الكثيرين بالجنون..

رأى الأهالي البسطاء، أطفالهم يذبحون ونسائهم وبناتهم يغتصبن امام اعينهم.

لذا أصبح من المشاهد المألوفة، في البلدة القديمة والمدينة الزاهية، أن ترى كل يوم إحداهن، تحثو تراب الشارع على رأسها، وهي تنوح وتغيب عن الوعي، أو أخرى بعد أن قتل الجنجويد افراد اسرتها، ترتمي تحت اقدامهم ترجوهم قتلها، وعندما تستياس منهم تحاول سحب سيف أحدهم، فيركلها بغضب، ويبتر رأسها دون رحمة!

لم يوفر الجنجويد في اليوم الأول للغزو احدا.. قتلوا رجال الدين، ومثلوا باجسادهم، قتلوا رجال الدولة، الكبار والصغار، قتلوا كل من اشتبهوا فيه لأي سبب من الأسباب، وهكذا بدأت البلاد الكبيرة تنحدر، إلى قاع سحيق. لا يتغشاه التاريخ نفسه الا لماما! لمفارقته لكل ما ألفه التاريخ في مسيرته كتاريخ، لأي وقائع شبيهة أو ممكنة أو محتملة!!

كانت البلاد الكبيرة اذن، قد دخلت في نفق معتم ليس له مثيل!

وهكذا شكل عهد الجنجويد الأوائل، منعطفا حادا في حياة الناس، إحساسهم ومشاعرهم. بل تغيرت حتى سحنتهم، وطال التغيير لغتهم

اليومية، لم تعد تلك اللغة الدافئة الحميمة! التي توارثوها عن أسلافهم لآلاف السنوات!

وبسقوط البلدة القديمة والمدينة الزاهية، بلغ الإحباط بصانع الفخار مبلغه، فقد نال منه التعب والإجهاد جراء محاولاته المستمرة، في منح الناس القدرة على تقدير البلاء قبل وقوعه!

فلطالما حذر الخزين من الخطر المحدق بالبلاد الكبيرة، وجيوش الجنجويد التي نمى إليه خبرها، قبل أن تتحرك من مواطنها وراء البحر المالح، وتخوم الصحراء.

إلى أن دقت سنابك خيلها أبواب البلدة القديمة، ودكت (طوابيها) و(قياقرها) واحدا تلو الآخر! ورغم حرص الخزين، أن تصل رسالة صانع الفخار للناس، الا ان احدا لم يعره اهتماما، فقد كان القوم منشغلين بسباق الحمير الدوري، وهم يتباهون بحميرهم العصافير الملونة! مع ان البلدة طوال تاريخها، لم تعرف من الحمير سوى النوع (المكادي)!

هؤلاء القوم الذين يعطون سباق الحمير، أولوية على غزو بلادهم، هم ذاتهم أحفاد أولئك الناس، الذين اغتبطوا، عندما طار صانع الفخار الأكبر، قبل عشرات السنوات واختفى، ليريحهم من حديثه لبضعة سنوات.

وقتها اغتبطوا وأخذوا يكررون، بعد أن طال غيابه امنياتهم:

- استرحنا منه، لا شك اكلته وحوش براري البلاد الكبيرة.

وذات يوم، بينما هم في هذا الكلام، إذ به يطل عليهم قادما.. اقترب نحو الخزين و(قالده) معانقا، وقد انخرط في بكاء مر. وبعد أن هدأت

خواطرهما، قال الخزين:

- ما منا الا من له من حبيب نصيب، وما منا إلا من هو باكي مشتاق إلى وجه الحبيب، ولكن يا ولدي صدور الاحرار قبور الاسرار، فإذا وقدة في قلب المحب شغلت من اشتياق الحبيب، اشغلتها الانوار.

ثم خلع الخزين جلبابه، فإذا بطنه محزوما، بقماش قطن كثيف، حله فإذا به مشبع بالدم، ثم بكى وكانت دموعه مخلوطة بالدم، ثم التفت إليه وقال:

- يا ولدي لا يعرف أقدار، الرجال سوى الرجال، ورحم الله امريء عرف قدر نفسه، وكتم سره وحفظ أمره! فعانقه صانع الفخار الأكبر باكيا وقال:

- هذا صبر لا اطيقه.

وخرج لا يلوي على شيء!

٧

صانع الفخار الأول، أشبه بنبي قديم، في ثيابه الرثة والعصاة الأبنوس، التي يتوكأ عليها جسده شبه العاري، ومثل كل أنبياء الجنس البشري، كان أتباعه من المهمشين، والفقراء والمحرومين والمقهورين والجوعى، وربما بقايا اللصوص والمجرمين! الذين يتطلعون للتوبة، والتحرر من ذنوبهم، التي ليس بمقدور مياه النهر نفسها غسلها!

وكنبي قديم، عندما ينظر في وجوه هؤلاء الاتباع، يحاول حث ذاكرته، لاستفراغ آثار الغرائز الطبيعية، الضاربة القدم، عن طريق الخلاص الذي تعترضه الآلام والمحن والعذابات، ومع ذلك لم يعرف عنه أنه نسب شيئا من هذه الغرائز، التي تتسبب في المحن و العذابات للشيطان! كان يعتقد أن البشر اخترعوه، لتفادي وضع اللوم على انفسهم!

وفي الحقيقة كانت شخصية صانع الفخار، أقرب لقادة الثورات منها للأنبياء!

جادين جانو، الذي حلت به روح صانع الفخار الأكبر، وفقا لنبوءة قديمة، استوقفه الإكتشاف الباهر، لعالم اثار من زملائه بالمعهد، الذي يعمل فيه!

والذي كان قد اكتشف ثلاثة جماجم، وأربع هياكل عظمية، تعود إلى عصور مختلفة، وبعد دراستها وتحليلها، خرج على الملأ أنها جميعا للشخص نفسه، الذي لا يستبعد أن يكون هو صانع الفخار!

اثاري آخر من المعهد نفسه، وجد درعا محلى بالياقوت الأحمر، ونوع غريب من رقائق الفضة، وسيفا من الذهب الخالص، مقبضه مطعم بنوع نادر من الماس، أكد بحزم صارم، أنهما السيف والدرع اللذان، خاض

بهما صانع الفخار الأول، معاركه التاريخية! التي وردت في أكثر من ملحمة، من الملاحم الشعبية للبلاد الكبيرة، و التي كانت قد مجدته ب(دود الوعر! الاسد النتر، تمساح القبائل و ساري الليل)!
لكن كل هذه المزاعم، كانت تصطدم بحقيقة أن صانع الفخار كان فقيرا معدما، مستهلكا كشاعر مغمور، لا يملك سوى عصا ابنوس معقوفة، كما أنه كان مسالما و وديعا ولا يصلح تشبيهه بـ دود الوعر! او اي تشبيه وحشي اخر! وهو ما أكدت عليه كل رمزيات النخبة، التي ترتاد الانداية عبر العصور!
ما ميز صانع الفخار الأول والخزين طبلة الأول، أنهما لم يتشرنقا في العزلة كصانع الفخار و الخزين الآن.
كانا دائما وسط زحام الناس.. المهمشين الذين تخددت وجوههم العكرة، بمزيج العرق والغبار، الذي رسم خرائط بديعة على ثيابهم الرثة!..
يخطبان حول كراكير الكجور، و أفنية المعابد القديمة، وكنائس اليهود و ابناء يسوع، يحلمان للناس بعالم أفضل من هذا العالم الجنحويدي!
لطالما خشى صانع الفخار، أن تتحول الطائفة المنسوبة إليه، على يد الخزين، إلى منظومة متهافتة متعطشة للسلطة، مشحونة بالضغائن والأحقاد، والنزوع للإنتقام.
كان يخشى أن تتحول تعاليمه، من طاقة ملتهبة بالاسئلة والمغامرة، إلى نظام و اثق متيقن من كل شيء، لا يخامره الشك ابدا!

لم يكن يريد لأتباعه أن يلهثوا، خلف هذا الواقع المرير، الذي تعيشه البلاد الكبيرة، بالحكم عليه من زاوية نظرهم المحدودة، التي ينسبونها إلى تعاليمه زورا وبهتانا!

٨

المخطوط الذي حاول (معهد جار النبي جارو) فك طلاسمه؛ كان مكتوبا بلغة غامضة، هي في الحقيقة مزيج من كل لغات البلاد الكبيرة، من اقصى دار صباح، حتى اقصى دار الريح، ومن اقصى الصعيد إلى اقصى السافل!

هذه اللغة ازدهرت على نحو خاص، ولوقت طويل في الوسط، بل كانت الأداة الوحيدة للتواصل، بين شعوب البلاد الكبيرة!

لدى ترجمة ذلك المخطوط، وفض مغاليقه. اكتشف فيه باحثون المعهد، أفكارا غاية في الأهمية، تتعلق بطائفة سرية عاصرت وناصرت صانع الفخار الأكبر، تم تأسيسها قبل ذلك الاجتماع الحاشد، للأولياء بالجبل، بوقت طويل، أثناء تواجد صانع الفخار في سجن القلعة! اتبعت هذه الطائفة السرية تعاليمه بدقة، بل و انقذت أحد أحفاده من صانعي الفخار، عندما سقطت البلاد الكبيرة، على يد الغزاة الجنجويد الأو ائل. لأسباب تتعلق بالأمن القومي -كما قالوا- لم يفصح المعهد عن كل الأفكارالمهمة، التي حواها المخطوط، إذ ضرب ستارا كثيفا من الكتمان. ومع ذلك تسربت فكرة أن صانع الفخار الأول، كان يعمد إلى تعليم اتباعه، صناعة الأو اني الفخارية. وبيعها للحصول بثمنها على الطعام، وقد أخذت فكرة الحصول على الطعام جل اهتمامه، لذا كان أتباعه بارعون، في صناعة أو اني الطعام أكثر من غيرها! وذات التسريبات،

أكدت أن علوم الكون، وصناعة نوع محدد من ألواح الكتابة الفخارية، نالت اهتماما خاصا لديه!

لكن أهم ما في هذه التسريبات، أنها حددت بدقة، الموقع الجغرافي، الذي ولد فيه صانع الفخار الأول، هنا في (البلدة القديمة) التي ظلت بلدة صغيرة، عبر التاريخ، عند منحدر النهر، الذي يتفرع منه جاسر صغير، يتاخم المدينة الكبيرة الزاهية، حاضرة البلاد الكبيرة من اقصاها إلى ادناها!

جادين جانو كخبير لغات، كان يعتقد أن فكرة التشفير، التي ابتدعها صانع الفخار، وطورها الخزين، ماهي الا محاولة للتعبير، عن تفوق الخزين نفسه على صانع الفخار!

هذا الإحساس بالتفوق، الذي كان مسكونا به ولم يجد وسيلة للتعبير عنه، سوى بلورة الشفرة، ووضع هوامش زائفة، ظن أن لا أحد سيكتشف زيفها، رغم علمه بتلك النبوءة القديمة، عن روح صانع الفخار، التي ستحل على وليد، ليس من سلالة صانعي الفخار، والذي لا محالة، سيكتشف هذا السعي الحثيث للخزين، لبناء مجده الخاص، بتوظيف طائفة صانع الفخار، وفقا لأهدافه هو!

وفي الحقيقة اهتمام كلاهما: صانع الفخار والخزين، بتوحيد لغات البلاد الكبيرة، بمزجها في لغة واحدة، لم يكن سوى محاولة يائسة، لإعادة تشكيل (اديان) البلاد الكبيرة في (دين واحد) يعود فيه الفضل في الحقيقة للخزين؟!

لكن الشيء المهم، الذي لاحظه (جادين جانو) هو طيف من إدراك عميق لصانع الفخار، أن الإمبراطوريات العظيمة عبر التاريخ، لم تدمرها سوى

الانفجارات القومية والدينية، على عكس ما صوره الخزين للناس، لكن يظل من الصعب، استعادة فكرة الطائفة وإعادة تشكيلها من جديد!

فالخزين سعى بقوة، لدمج (ثقافة الجنجويد الغزاة) في (ثقافات البلاد الكبيرة)، استنادا إلى تأويله الخاص، لتعاليم صانع الفخار!

وبينما تنهض تعاليم صانع الفخار، في الفصل بين عقائد الناس الثابتة، التي لا تتغير. وحياتهم اليومية، وما يمرون به في كل لحظة من اليوم، تختلف عن اللحظة التي سبقتها!.. لكن كلاهما: عقائدهم وحياتهم اليومية، يفضيان للهدف نفسه: (الحياة)!

هذا التناقض بين سعي الخزين، وتعاليم صانع الفخاريطرح على أعضاء الطائفة، تحدي: كيف بإمكانهم تمثل تعاليم صانع الفخار، دون تخطي أنفسهم كطائفة ضيقة!

٩

نما صانع الفخار الحفيد وترعرع، في هذه البلدة القديمة، وهو يراقب شمسها، التي تطل على الدوام في استحياء، ملقية بأشعتها على الدروب الضيقة، الملتوية قبل أن تفيض بتردد، كأنها تتراجع خطوتين قبل أن تتقدم خطوة، على القوز الرملي الذي تتكئ، على سفحه البلدة، المتاخمة للمدينة الزاهية!

قبل ميلاد صانع الفخار، كانت هذه البلدة موحشة وكئيبة وشاحبة، رائحة الروث والعطن تزكم خياشيم سكانها البؤساء، الذين تفوح من جلودهم رائحة، هي مزيج من رائحة الفخار الزيء، وجلود الماعز المدبوغة، في منقوع القرض والملح!

ولولا ألق المدينة الزاهية، التي تتاخم هذه البلدة، لانقرض سكانها من البؤس!

كانت التسريبات عما حوته المخطوطة لاتتوقف، وبطبيعة الحال يشتغل فيها خيال الذين يتناقلونها، بالاضافة والحذف كما يعن لهم! فتصبح الحقائق ارباع حقائق أو حقائق مشوهة!

وهكذا يتنامى إلى علم سواد الناس، ما يحذفون منه أو يضيفون إليه على هواهم، كزعمهم أن صانع الفخار الحفيد لا يبتسم! ليس ثمة من رآه مبتسما أو ضاحكا! كان عالقا في اكتئاب مزمن منذ ولادته، إلى أن اختفى

على نحو غامض، قبيل غزو الجنجويد للبلدة القديمة والمدينة الزاهية، بقليل!

وذات التسريبات تؤكد أن هذه البلدة، قبيل ميلاد صانع الفخار، لم تكن تعرف التقويم بشكله الحالي، أو كثير من الأعياد التي تعرفها الآن، رغم أن فكرة التقويم والأعياد ولدت مع صانع الفخار الأكبر، وتعاليمه المناهضة لكل الأديان منفردة، و متو افقة معها مجتمعة!

الا أن الحفيد شرع في افكار جذرية كبيرة!

ولذلك كان موقفه من الدين الجديد، ما وراء بحر مالح وتخوم الصحراء القاحلة، بمثابة جزء من دعوته، التي توحد الأديان جميعها في دين واحد، كامتداد، لذات نظام تفكير صانع الفخار الأكبر!

كان ميلاد صانع الفخار الأكبر، بحد ذاته عيد.. بل أول عيد ميلاد يعرفه أهالي البلاد الكبيرة قاطبة!.. تلته أعياد كثيرة، كعيد التعاليم، وعيد الطوفان الاول، إلى اخر الأعياد، التي كان أهالي البلاد الكبيرة، يولونها اهتماما كبيرا!

إذن بميلاد صانع الفخار الأكبر، تعرف الأهالي للمرة الأولى، على مفردة (عيد مولد) كما تعرفوا على كلمة (حب) وغيرها من المرادفات، فانفتحت قلوبهم يغادرها البؤس، ويحل التفاؤل والأمل!

وهكذا ظهر شعر الغزل والغناء العاطفي، إذ فتحهم صانع الفخار الأكبر على عالم من المعاني، والتعابير الجديدة على حياتهم البائسة، فأضحت النساء يتزين بالعاج والأبنوس والخرز الملون، ويتعطرن بخلاصة الاعشاب البرية ذكية الر ائحة، ويستخلصن زيوت لطيفة، من نباتات استزرعت خصيصا لهذا الغرض، بل أصبحن يحرصن على شد صدورهن، بسيور

الجلد ويضعن (لبادات) على مؤخراتهن، ليزدن بروزها!

إذن وبمعنى آخر، أن البلاد الكبيرة التي انشطرت إلى شطرين مؤخرا، يرجع الفضل الأول لإعطائها معنى الحياة، بكل مفرداتها، لصانع الفخار الأكبر، الذي صلب في فناء الكنيسة القديمة، على صليب من خشب اللعوت سيء الرائحة!

فبعد أن ضاق الخزين بالجند صرخ فيهم:

- ألا تستطيعون حبسه؟

فردوا:

- لم نستطع مسكه!

- لم؟

- لحظة يمشي على الأرض، ولحظة يطير في الهواء!!

- قولوا له الخزين يطلب منك أن تدخل في هذا المكان فيدخل، باذن الحق!.. فجاء الجند إلى صانع الفخار، واخذوه فانقاد لهم، فأتوا به إلى باب القلعة، وقالوا:

- يقول لك الخزين أن تدخل.

فدخل، وقفلوا عليه الأبواب، بعد أن وضعوه في حجرة ضيقة.. وفي الليل جاء السجان، ووضع في عنقه سلسلة، وادخله حجرة أكثر ضيقا، لا تتسع لأكثر من شخص، فسأله:

- لماذا تفعل بي هذا؟

- إنها أوامر الحاكم

- اتظن هكذا قيدتني وحبستني؟

- نعم

فتحرك صانع الفخار الأكبر، فتناثر الحديد عنه كالعجين، وأشار بيده إلى الحائط فانفتح فيه باب، فرأى السجان فضاء واسعا، فتعجب من ذلك.
ثم مد صانع الفخار إليه يده، وقال:
- افعل ما أمرت بفعله.
لكن السجان أبي، ونقله إلى فناء واسع، وجد فيه صانع الفخار مساجين لا عد ولا حصر لهم، فلما رآهم قال لهم:
- اسمعوا مني ما اقول أن كان لكم معقول، والا بقاءكم هنا يطول.
فالتفوا حوله.. فرسم على الأرض مستطيلا كبيرا وقال:
- هذا (فلك) من أراد النجاة فليركب..

فركبوا ووجدوا انفسهم في عرض البحر، فنزل في الماء وأخذ يجر المركب جاريا على سطحه، والمركب خلفه حتى وصل البر، فأنزلهم وقال:
- سيروا إلى حال سبيلكم. ثم أشار إلى احدهم:
- انت..
فتوقف الرجل وقال بتردد وخوف وهو يتلفت:
- انا؟
- نعم انت، سيأتي من صلبك من يغزو البلاد الكبيرة، فيسفك فيها الدماء ويسبي النساء ويحرق بجنده الجنجويد الزرع والضرع.. ولم ينتظر ردا من الرجل، إذ تبدد في الهواء!
كان قد عاد إلى سجنه!

١٠

سحب الخزين الحفيد يده من يد (نينا) التي كانت تمسكها بقوة.. لا تريد إفلاتها!.. كان مدمى القلب، وكانت جريحة أقصى حدود الجرح! كلاهما كانا اسيران لوضع شاذ وغريب، ليس لهما فيه يد.. وضع فرضته القوة الغاشمة للجنجويد..

كان هو عوليس وكانت هي حبيبته كاليبسو الجميلة، اللذان فرقهما قدر رهيب!

فعندما أمر الجنجويد أهالي البلدة بالمغادرة، في اللحظة نفسها كانت روح صانع الفخار الأكبر، ترتجف في مستقرها السري، فترتج ارض البلدة القديمة، ويرتاع كل شيء يتنفس فيها!..

صانع الفخار الحفيد، أدرك منذ وقت بعيد أن هذا سيحدث ذات يوم..

مدت روح الجد قامته المديدة خارج البلدة، تودع ضوء الشمس الشحيح إلى الابد! ود لو يقول لهم قبل أن يغادر:

- الجنجويد ليسو خالدين، فلا تفقدوا أمل العودة.

فيما كانت نينا منذ مغادرتها البلدة، يتجه بها الفلك إلى جذرها البعيد، في صعيد النهر، ترى كو ابيس غريبة، تتعلق بمكان لم تولد فيه، ولا تعرف عنه شيئا!

مكان لم ترتبط به، وليس لديها فيه ذكريات..

مكان لم تألفه: مجهول وغامض، ليس ثمة لغة مشتركة بينها وبينه، بعد

أن عزل الجنجويد اللغة، وشيدوا جدارا عازلا، من صخر جبال الأولياء، على عرض النهر، من جهة دار صباح، إلى جهة دار الريح!

((هنا يستعيد جادين جانو، من ذاكرته مجتزأ من المخطوطة:

(يقال أن الموقع الذي شيدوا عليه (جدارهم العازل)، هو الموقع نفسه الذي ظل الغزاة، يشيدون فيه جدارا لعزل المنفيين من الأهالي، الذين يقاومون الغزاة أو يشتبه فيهم أنهم ينتمون لطوائف، تنشط في مقاومة الغزاة، وقد تجذرت هذه العادة، حتى صارت سنة ظل يتبعها الملوك الوطنيين والحكام العامين، بإبعاد معارضيهم والى الابد!

والابد كان يعني دائما سقوط الجدارالعازل، اما بعوامل التعرية وطول الامد، او بسبب دك الطوائف المقاومة له، وهدم كل جزء فيه! لتبدأ مثل كل مرة مرحلة جديدة من حياة البلاد الكبيرة، التي أدى تقلب مزاجها إلى تقلب تاريخها!)) وكانت لعاشقها الخزين، المشاعر والأحاسيس والأفكار ذاتها، فاللغة المشتركة بينه وهؤلاء القوم أسفل النهر، غادرت بمغادرتها، وهكذا تعبأت أحلامهما بكوابيس لا يدركان هويتها! تضيع ملامحها في الهاتف القديم:

- نمهلكم ريثما تشيدون الفلك لترحلوا!

الهاتف الذي دوى فجأة دون سابق إنذار، فقسم البلاد الكبيرة إلى قسمين:

- صعيد وسافل!

كان المتاخمون لصعيد النهر، داكني البشرة نوعا ما، و المتاخمين لأسفل النهر أقل دكنة، بسبب اختلاطهم بالجنجويد الأوائل قبل عشرات السنوات، لكن كليهما كانا ينتميان للجدة الأم نفسها، و يعبدون الإله

نفسه، الإله الذي جاء الجنجويد يحملونه على صهوات جيادهم ونياقهم، من ما وراء البحر المالح، و تخوم صحراء دار الريح!
تبنى اهل البلدة القديمة هذا الإله، ودون أن يتخلوا عن الهتهم، كانوا يؤدون الشعائر معا، كان الاه كلاهما متصالح مع الاخر! لذا كانا يشتركان في اشياء كثيرة! لكن على عكسهم، كان الجنجويد لا يشعرون بالامتنان لصانع الفخار مثلهم!
- لن تحملوا معكم أي شيء، فقط غادروا قال الهاتف بحزم قاس!

احتضن الأهالي بعضهم البعض، وانخرطوا في بكاء حزين بلل تراب البلدة لوقت طويل.
كانت عيونهم زائغة، ومشاعرهم متضاربة. تمرغوا في تراب الخط الفاصل بين الصعيد والسافل، وهم يودعون قبور موتاهم بنظرة أخيرة، ويودعون أهلهم وجيرانهم باسى!
كان الجنجويد يريدون الغاء ذكرياتهم، دون أن يدركوا انه لا يمكن الغاء الذكريات..
الجنجويد الذين جمعوا في تاريخهم، كل قوى الشر في التاريخ، لم يكتفوا بشطرهم شطرين! إذ شرعوا في تدعيم الجدار العازل، الذي بنوه بجماجم قتلاهم!
في اللحظة التي أكملوا فيها تدعيم الجدار العازل، كانت روح صانع الفخار الجد، قد شارفت على الوصول إلى مستقرها الأخير!
لم تعد تأبه لهؤلاء الأبناء الضالين! المضلين! الذين لطالما جاهد صانع الفخار الأكبر لانقاذهم! تغرب لأجلهم.. وحبس لاجلهم، وصلب واحرق لأجلهم!

وهو في سجن القلعة، بعد أن استسلم أمير السجن للاختفاء الغامض للمساجين، وكذب على الحاكم، أنهم تمردوا فقتلهم، و أخذ وعدا من صانع الفخار، بان لا يختفي أحد آخر!

إذ كانت قد ترسخت في أعماقه قناعة، أن صانع الفخار، هو من قام بتهريبهم، إلى مكان لا يمكن أن يصلهم فيه جند البلدة القديمة، إذ اختفى كل أثر لهم فيها!

وقتها زاره الخزين، فلما دخل عليه رأى الحجرة، التي حبس فيها مرتبة، غاية الترتيب، وقد توفرت له فيها كل سبل الراحة. كان مجلسه حسن وفرشه حسن ولديه من يقوم على خدمته، فسأله:

- اين صانع الفخار؟ فرد عليه وهو يشير بيده:

- خلف هذه الأبواب، يعظ المساجين الخطرين، القتلة واللصوص والمجرمين، يدخل على بعضهم كل يوم، ويخرج منهم وقد تابوا، وصاروا من اتباعه!!

- ومن أين له بهذا الطعام الغريب، الذي ليس في البلاد الكبيرة مثله؟

- تحضره كل يوم مائدة، فينظر إليها لحظة ثم ينقرها بأصابعه، فترفع دون أن يأكل منها شيئا!

وفيما الخزين يسأل والسجان يرد، دخل عليهما صانع الفخار. رأى الخزين وجهه يعود طفوليا كأنها تلك المرة الأولى، عندما جاءت به أمه تسحبه خلفها، قبل سنوات طويلة خلت.

كان حسن الوجه، لطيفه.عليه هيبة ووقار لم يرى الخزين مثلهما من قبل. وفيما الخزين يتأمله، جاء السجان يرتعد، وقبل الأرض بين قدميه، فسأله:

- ما بك؟

- سيعدمونني.. كبش فداء.. نارهرب المساجين لم تنطفيء، رغم أننا قلنا انهم تمردوا فقتلناهم.. قالوا يريدون رؤية الجثث. هدا صانع الفخار روعه وقال:

- امض، لن يضرب عنقكم أحد..

واخبره عن موضع ليخبرهم به، أن الجثث دفنت فيه..

ولم يمض بقية اليوم، حتى جاء السجان مرة أخرى والفرح والدهشة معا، يمتزجان ويقفزان من عينيه، وقبل أن يفتح فمه بكلمة، بادره صانع الفخار بالقول:

- إذن عثروا على جثثهم جميعا لا ينقصون جثة.. فأغمي على الرجل من الدهشة!

١١

عبر هذا النهر الطويل، الذي يجري من الصعيد منحدرا إلى الأسفل، والذي يقسم البلاد الكبيرة طوليا إلى قسمين: دار الريح ودار صباح، والذي ينبع من بحيرات عدة تتغذى من الأمطار السماوية، والرؤى الغامض!

كما تتفرع منه عشرات الأنهار، لكن مصدره الحقيقي مركز الوجود، حيث نصب (صانع الفخار الأول) (قطيته) البديعة، تحت شجرة المنتهى، المسكونة بطائر البلدة القديمة الخالد.

قبل مئات السنوات، وعبر هذا النهر، أجلى للمرة الأولى (جنجويد المقدس سره)، أهالي البلدة القديمة، سكان البلاد الكبيرة الأصليين. وعبر هذا النهر نفسه، بعد الجلاء الأول بآلاف السنوات، أجلى (الحاكم العام) ما تبقى من سلالات السكان الأصليين شبه النقية، والتي لم تتمكن حملات التهجين الجنجويدية، من اعادة انتاجها بالكامل!

هذا النهر إذن، ظل شاهدا لمئات ملايين الوقائع والأحداث الكبيرة والصغيرة، بدء بقصص الحب المجهضة، مرورا بجرائم القتل والغزوات، انتهاء بالحروبات العبثية!

فمن الأعماق السرمدية لهذا النهر العظيم، خرجت «الحورية الكنداكة».. اجمل راهبات البلدة القديمة، بخطى متئدة مضت تجاه صانع الفخار

الحفيد، الذي كان مسمرا على القيف!

اجلسته على فروة من نبات (السعدة) الذكي، ودنت منه وهي تكرر:

- زوجتك نفسي..

ودون أن ينبس ببنت شفة، أخذ كل شيء فيه يهتف:

- زوجتك نفسي..

وكل فج في البلدة القديمة يرجع الصدى:

- «زوجتك نفسي ي ي يي ي»..

النهر، الحوريات صويحبات صانع الفخار، عشبة معونة النهر الفتية، التي كان قد استخف بها الطرب، فأخذت تتراقص على أهداب الموجات الوسنانة!

كلاهما كان لا يدري كم لبث على تلك الحال!

أخذت يدها المترددة، تتحسس شعره الأجعد الكثيف، وجسدها يدنو منه حثيثا.. لكن ببطء، وحولهما أفراس النهر والتماسيح قد خرجت إلى القيف، تحدق فيهما بدهشة!

وحيوانات الغابة المجاورة، متراصة في شبه دائرة أو قوس تتفرج! وطائر البلدة القديمة، من عشه في شجرة المنتهى، يفرد جناحيه بطول النهر، ويغرد تغريدة عجيبة!

على نحو مباغت، كمن يفيق فجأة من نوم عميق، امتد لقرون وقرون، انتفض الخزين وهو يرنو ببصره، إلى غابته، فامسكت نينا بيده، وقالت بصوت حزين واهن، كأنها تستجديه:

- كيف يطيب لك العيش بعيدا عني؟ تعال، تعال معي إلى البلدة القديمة، نحن بحاجة اليك..

- لكن..

- لكن؟!

- يجب أن أخذ الإذن..

- ممن؟!

- من صاحب الإذن..

لكن كان الأوان قد فات.. لم يعودوا بحاجة إليه، بعد أن أعلن الجنجويد عن نيتهم، في إجلاء أهالي البلدة القديمة.

١٢

الأهالي الذين اجلوا، ما أن وطأت أقدامهم أرض الوطن الجديد فى قلب الصعيد، حتى تلفتوا حولهم، عسى أن يجدوا صانع الفخار أو الخزين، اللذان لم يبن لهما أثر، منذ وطأت أقدام الجنجويد تراب البلاد الكبيرة.
شعروا بحاجة ماسة لخطبة مطمئنة من أحدهما، في هذه اللحظة بالذات.. اللحظة التي وطأت فيها أقدامهم أرض الوطن الجديد!
وفي الحقيقة لم يكن لصانع الفخار أو الخزين، وجود سوى في دواخلهم، مخيلاتهم، ملامحهم، قسماتهم، لونهم الأبنوسي، تقاطيعهم، وربما في ذكرى بعيدة، تنقح كجرح متجدد في اعماق الوجدان!
في هذه اللحظة الحبلى بالمخاوف الغامضة، التي تمور في دواخلهم، ممزوجة بشعور خفي، لايخلو من رغبة الإقبال على الحياة والحب، وفتح طاقات الأمل على مصاريعها..
في هذه اللحظة بالذات، فج الماء صانع الفخار الأكبر، فشملتهم حالة من السكينة والهدوء!
وفيما هم على تلك الحال، كان (المقدس سره) يحتفل بتنصيبه ملكا، على عرش البلاد الكبيرة الجديدة، التي فقدت ثلثها للتو، وبنت جدارا عازلا يفصل بين صعيد النهر وأسفله!
و كان أتباعه الجنجويد يضجون ويصخبون، وقد نال منهم الشراب كل مبلغ، عندما وصلهم خبر لقاء راهبة البلدة القديمة وصانع الفخار! ورغم

ثمالتهم سرت في أوصالهم رعدة، لم يجدوا لها تفسيرا عندما أفاقوا من سكرتهم، عصر اليوم التالي!
من الجانب الآخر كان أهالي البلدة، الذين تسرب إليهم الخبر، قد خالجهم نوع غامض من المشاعر والأحاسيس، التي تدور كلها، حول ما تخبئه لهم الأقدار!

وعندما يتأمل (جادين جانو) بعد عشرات السنوات، هذا المجتزأ من المخطوطة، الذي يكشف عن وقائع وأحداث، تكاد تتطابق منذ عرف (انسان سنجة) البلاد الكبيرة واستصلح أرضها، إلى أن دهمها الجنجويد! بقدرما يتوقف عند شخصية صانع الفخار، التي يشعر أنها من صنع خيال الخزين، أو هي شخصية الخزين كما يتصور نفسه، وان ليس ثمة وجود حقيقي لها، خارج مدونات صانع الفخار، أو الهوامش عليها، المنسوبة للخزين، الذي هو المصدر الوحيد، الذي دون عن هذه الشخصية، في هوامشه على مخطوطها! الذي ربما كتبه شخص مجهول، باسم صانع الفخار!
إلا أنه، مع ذلك يجد أن الوقائع نفسها التي جرت وتجري، في البلدة القديمة والمدينة الزاهية، منذ آلاف السنين هي هي، حتى الجدار العازل، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يبنى فيها، فقد شيد أكثر من مرة خلال آلاف السنين، وكلما تآكله الزمن، و انمحت آثاره، جاء حاكم عام فشيده من جديد!
والحال هكذا، يجد جادين جانو، أن شيئا لم يتغير بشكل جوهري، فذات القضايا المطلوبة، التي ناضلت لأجلها أجيال آل صانع الفخار، وكافحت في سبيلها، أجيال آل الخزين هي هي نفسها!

حتى ليبدو الزمن النفسي للبلاد الكبيرة يراوح مكانه، كما أن الزمن الفيزيائي، يدور ليصل للنقطة ذاتها، التي انطلق منها، كأن البلاد الكبيرة من دون مخلوقات االله من بلدان، تتحرك في إطار قوانين مستقلة، تخصها وحدها، مفصولة عن القوانين التي يتحرك في إطارها الكون كله، وهذا العالم الذي تنتمي إلى كرته الأرضية، البلاد الكبيرة، التي تقع أسفل محيطاته وارخبيلاته، منفتحة على صحارى الجنجويد التاريخيين الرهيبة!

وهكذا مضت المخطوطة، التي فك (معهد جار النبي جارو) طلاسمها، تكشف عن سر رهيب، الإعلان عنه قد يفضي بلاهوت البلدة القديمة إلى العدم، إذ أكدت على نحو غامض، أن الطائفة السرية، التي كان يقودها الخزين، والتي عاصرت وناصرت صانع الفخار، كانت (هذه الطائفة) قد استبدلت صانع الفخار بشخص آخر يشبهه تماما الخالق الناطق! شخص لا يمكن التمييز بينه وبين صانع الفخار! شخص هو الذي تم صلبه، على صليب خشب شجرة اللعوت سيئة الرائحة، ونسبت المخطوطة هذا التدبير المحكم، لمعلمه الخزين طبلة ام جبو، دون علم أولياء الجبل، وهكذا تضع المخطوطة في حاشيتها سؤالين:

- من هو ذلك الشخص الذي صلب مكان صانع الفخار، وما حكايته؟
- أين ذهب صانع الفخار الحقيقي، وكيف ولماذا وافق أن يصلب شخصا بريئا بدلا عنه؟
- هل الخزين هو معلم صانع الفخار، أم أنه ابتدع لأتباعه شخصية صانع الفخار الغامضة؟

الأسئلة حول حاشية المخطوطة، ولدت في عقل جادين، الكثير من

الأسئلة الفرعية، خاصة ما يتعلق بتلك (الشفرة) العجيبة، التي ابتدعها الخزين لكتابة مخطوطاته، التي أعيا حلها علماء اللغات لمئات السنوات! ولشد ما تساءل: لماذا صوره في هوامشه التي وضعها على هذا النحو الخارق!! الذي يتخطى حدود البشر وإمكانياتهم الطبيعي.. اشبه باله اسطوري؟

هل حقا عندما دخل السجان والعسس على صانع الفخار، رأوه يكبر ويتضخم فلا يسعه المكان!!!.. فخافوا أن يتقدموا إليه؟! (قال): ثم أخرجه أمير السجن وجمعه بعلماء البلاد الكبيرة، يناظرونه فيرتدع. فطلب طستا من النحاس يزن أربعين رطلا، وألقاه في وسط النار، و انتظره حتى أصبح كالجمر، ثم قام وجلس عليه وقال: - يا علماء يا فقهاء يا أهل البلاد الكبيرة، من أراد منكم مجادلتي فلياتي ويجلس قربي على هذه النار! ففر الناس مرتعبين. انتهى.

١٣

الخزين بذكائه الوقاد، كان أول من ابتكر فكرة الأسماء الحركية له ولاتباعه.. اسمه الحقيقي (الخزين) مجهول تماما! لا أحد يعرفه بين من عاش معهم في ذلك المجتمع القديم، وإذا كان صانع الفخار، هو أول من إبتدع فكرة الكتابة المشفرة عبر التاريخ. فللخزين يعود الفضل، في تطوير هذه الشفرة، إلى لغة كتابة مستقرة!

الأسماء الحركية، وبلورة الشفرة كانا اختراعه، الذي كرسه لحماية أسرار الطائفة و اتباعها. وتسببت كتابته المشفرة هذه، في أن تظل الكثير من أسرار طائفة صانع الفخار غامضة أو مجهولة، رغم المجهودات الدؤوبة و المتضافرة، لعلماء اللغات والآثار والتاريخ، الذين لم يألوا جهدا في تجريب مختلف الاحتمالات الممكنة، لحلها دون جدوى إلى أن توصلوا أخيرا، إلى نوع خلاق من التخمين، في فك رموز المخطوط.

مشكلة هذه الشفرة كانت تكمن، في كونها هجين مزيج، من كل لغات البلاد الكبيرة، تم فيه إبدال المعاني إلى نقيضها، بالتالي تنطوي الوقائع والأحداث، على عكسها تماما!

بمعنى أن الحديث عن الحرب في المخطوطة، كان يعني الحديث عن السلام في الو اقع.. والحديث عن الانفصال، إنما يعني الوحدة!

الأجزاء التي فشل هؤلاء العلماء في فك طلاسمها، خمنوا أن قوامها لغات

انقرضت منذ آلاف السنين، ولم يعد أهل البلاد الكبيرة يتحدثونها.
وعلى أية حال، القليل الذي فكوا طلاسمه، كان بمثابة نصوص موازية أو متقاطعة مع الوقائع والأحداث، التي جرت فعلا.
ومن المؤكد أن الخزين، لجأ إلى كل هذه التعقيدات، ليس لخداع الأجيال القادمة، بتقديم تاريخ زائف للبلدة القديمة والمدينة الزاهية في ظاهره، بينما ينطوي فعلا على التاريخ الحقيقي!
وإنما كانت الفكرة المهيمنة عليه، هي حماية أسرار طائفته، والمكان الذي يختبيء فيه صانع الفخار، ويدير منه هذه الطائفة المنتشرة، في كل مفاصل البلاد الكبيرة ودولها.. في كل العصور!
ومع ذلك ما جادت به المخطوطة من أسرار، كشف عن رواية أخرى، عن أصل وفصل الخزين ام جبو، إذ نسبت المخطوطة أبويه ل(الرحل) الذين لا وطن لهم، وتشير أن المخاض داهم والدته، في اطراف البلدة القديمة، أثناء رحلة قومها القساة، الذين تركوها وطفلها الوليد هنا في الفلاة، ومضوا. فوجده رعاة البلدة القديمة يبكي في حضن أمه، التي كان قد مضى على موتها، وقت ليس بقصير!
وهي رواية تدحض الرواية الشائعة، التي تنسبه للمنبتين، الذين لا يعرفون لأنفسهم أصل أوفصل، بسبب حملات الاسترقاق المتبادلة، التي كانت تمارسها شعوب البلاد الكبيرة القديمة، ضد بعضها البعض!
هذه الرواية المتداولة، تشير إلى انه كان قد جيء بأم جدته جدة امه، في احدى حملات الاسترقاق، التي خاضها الجنجويد في الصعيد! وفيما (جادين جانو) يغرق في تأملاته، كانت (نينا) حبيبة آخر أحفاد الخزين، تعبر على الضفة الأخرى من المخطوطة، وتعبر على خاطرها ذكرى لقاءها

الأول بالخزين الحفيد، عندما كانت تستحم في النهر، تبلل لهيب عريها المستثار!

ضمها الخزين إلى صدره، وأخذت أصابعه النحيلة تتسلل إلى ظهرها، فيتسربها شعورزلق دافيء، يشعل فيها بوحا لا حدود له! تنقلت أصابعه تجوس في العش بين فخذيها، فأخذت تموركتنور يغلي!

الحرق المشتعلة داخلها تبتل بصهد لزج، واصابعه تمضي بعيدا، تتخلل إنكفاءات طياتها بشغف، لتفتح كل شيء فيها على لهفة وشوق عارم!

مدفوعان باحساس همجي، متوحش.. لحظتها، في الجاسر المتفرع من النهر، مضى نبض انتصابه يغرقها، في أكثر احاسيس الوجود كثافة وخدرا ولذة! في هذا المكان بالذات، وفي لحظة مماثلة لهذه اللحظة بالذات، التقى صانع الفخاربالراهبة الكنداكة، والتقى المقدس سره بأم عيون، فكان بينهم جميعا ما كان!

لحظة واحدة تنطوي على شقيقاتها اللحظات!

الآن و(نينا) تمضي لتلحق بالفلك، لتغادرغروب هذا الجزء من وطنها، لا يخطرببالها شيء سوى تلك اللحظة الاولى، التي جسدت حياة بكاملها، من المبتدأ إلى المنتهى!

فيما هذا الخاطر يلح عليها، وهي تزمع الإبحار وقومها جهة الصعيد، كان جنود الحاكم العام لحظتها يذبحون الذبائح، احتفالا بإجلاء أهل البلاد الكبيرة الأصليين، والعثور على خر ائط الجدار العازل القديمة، بين مخطوطات الكنيسة، والتي كانت قد اختفت منذ مئات السنوات، وفي الوقت ذاته انشغلوا بإعادة بناء الاندايات القديمة، لتصبح نسخة مماثلة، لاندايات أسلافهم ذات الر ايات الحمر، في موطنهم التاريخي

البعيد، ما وراء بحر مالح، وتخوم الصحراء القاحلة!
وكانداياات أسلافهم في موطنهم البعيد، جعلوا على خدمتها ارقاء وجواري هذا العصر، من كل جنس ولون..
هؤلاء الذين كانوا هم السواد الأعظم من الشعب، الذي تم نهب موارده و افقاره، فاسترق غالبيته بسبب وضعهم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي المتدني، فلم يجدوا سبيلا للحياة، سوى انداياات الحاكم العام، التي مزج فيها خبرات كل انداياات الشعوب، التي غزاها أسلافه الجنجويد، مع الخبرة المحلية المتوارثة، ل(فداديات) البلدة القديمة والمدينة الزاهية..
وعلى أية حال كان هؤلاء المعذبون، من شعب البلاد الكبيرة، بمختلف درجات عبوديتهم، يجدون في هذه الانداياات، أرواحهم الضائعة، بين أقبية تاريخ غامض، شفره الخزين الجد بمهارة أعيت جهابذة (معهد جارالنبي جارو) لزمان طويل!
فيما هذا الخاطريلح على جادين جانو، كانت نينا قد صعدت إلى الفلك، وقلبها يتلفت بحثا عن ثمرة فؤادها الخزين الحفيد، في دروب البلدة القديمة والجاسر المتفرع من النهر العجوز!
فيما مضى، كان أهم ما يميز البلدة القديمة، معبد صانع الفخار، الذي كانت روحه تتجلى، وطيفه يتجسد للأهالي الاتقياء الانقياء، في المساءات الحالمة.
إذ يخرج طيفه من بين الاشجار، التي تحيط بالمعبد، كالسوار. تتخللها شجيرات الريحان البري، التي تمتزج رائحتها مع رائحة السعدة، وعشبة مياه النهر، عندما تلفح الرائحتين تيارات الهواء البارد، فتدهم خياشيم

العابرين إلى المعبد، باعثة فيهم نوع غريب من الشعور باليقين!

- لم تعد البلدة القديمة والمدينة الزاهية ذاتهما، لا مكان لك هنا!!

- هل ستأتي معي؟

- لا استطيع. علي القيام بأمور مهمة..

- أهم مني؟!.. هل ستتركني كما ترك صانع الفخار الكنداكة؟!

- لم يتركها. كان يحميها مثلما أحاول حمايتك الآن.

- كيف تحميني وها انت تتركني ليحملني الفلك إلى أرض غريبة؟!

ود لو قال لها الحقيقة.. حقيقة بحث الحاكم العام عن هويته الحقيقية، لحظره.. حقيقة كلابه التي تجد في البحث عنه لتعتقله، حقيقة أنهم اقتربوا كثيرا من إماطة اللثام عن شخصيته المجهولة!

توقفت كلمات متزاحمة، ملؤها العبرات في حلقه، الذي كان جافا، تجرحه تنهداته الآسية.

استجمع في داخله كل قسوة آل الخزين، التي وخزته في هذه اللحظة، عبر ثقوب التاريخ، لتفتح مجاري رفيعة لاترى، تنحدر من تلك الينابيع السرية، تتدفق عبرها.. قطرات صغيرة من العزيمة، لها أثر ندى الفجر الجارح..

استجمع قواه ومضى، دون أن يلتفت وراءه! فيما نواتية الفلك ينادون على المتأخرين، ليعجلوا بالمغادرة! في المرة الأولى وهي تستحم في النهر، كانت تعطيه ظهرها..

كان ردفها يتغنج تحت الماء، فتطفو فقاقيع صغيرة. كان يحدق فيها مسلوبا، تسمرت عيناه على ردفها الهمجي، الذي منحته عناية رب صانع الفخار، طاقة جذب مثيرة وآسرة، تلفه بكل هذا الجنون والدوار!

فيتخيل نفسه يمتطيه، كما كان جده الخزين الأكبر، يمتطي الظباء الحرونة في طفولته!

في وقفته تلك، أخذ يتخيله صلبا متماسكا وممانعا، ينطوي على زغب بري لطيف الرائحة، فتخطر على ذهنه، كل المآثر التاريخية للأرداف الشبيهة، فيما تواتر عن الخزين الجد.

تلك الارداف البديعة، التي كما ورثتها الكنداكة عن أصلها الملوكي البدائي الكريم، لجداتها الغابرات، اللائي ملأن خيال الشعراء المجاذيب بالجنون، لهول ذلك الفخر والإعزاز المهيب، الذي يشعل فحولات الأبطال، حتى الرمق الأخير، من حياتهم البائدة!

هذا الردف المدهش، هو أيضا أثمن ما ورثته نينا، بعد مئات السنوات.

وعندما ودع الخزين الحفيد الفلك، كان يدرك أن ذكرى هذا الردف، ستظل تطارده إلى الأبد!

١٤

عندما جاءوا به مكتوفا لصلبه، أومأ بعينيه إلى الحائط، فانفلق.. وبانت فلاة واسعة تضيء بنور، أقوى من الشمس والقمر والنهار
مجتمعين، فسأله السجان:
- ما هذا؟
فرد عليه:
- اذهب وتفرج..
فذهب ونظر فإذا باللؤلؤ والمرجان والماس حصى، وكل الشجر وردا وفاكهة، ونهر البلدة القديمة مزيج من اللبن والخمر والعسل! هتف السجان:
- والحق، تقدس سر الحق!
المقدس سره بقناعاته الراسخة، في انتمائه لعظماء التاريخ.. أولئك الأنبياء منذ آدم، إلى آخر نبي مغمور أو منسي أو غير معترف به. لم يكتفي أن ينسب نفسه إلى ذلك النبي الجديد، الذي ظهر ما وراء البحر المالح وتخوم الصحراء القاحلة.
بل مضى نيافته بإشاعة الحديث، عن قداسة دمه النقي، الذي يتجاوز دماء الأنبياء طهارة و نبلا وعفة!
ولذلك كان قداسته يولي أهمية كبيرة، لمسألة (النسب الشريف) لأصوله المزعومة، لمجابهة الدماء الفاسدة، التي في نظره تجري في عروق أهالي

البلاد الكبيرة الأصليين..

هؤلاء السود، الذين داهمتهم جيوشه ذات فجر شاحب، فأحرقت القصر الملكي.

في اللحظة نفسها، التي كان ملك البلاد الكبيرة، يتحرش فيها بجارية صغيرة سلبته وقاره، في منتصف السلم المفضي لبهو العرش.. تناولتهما ألسنة اللهب مع أخشاب السلم المتداعية، وهكذا ذابا دون أسف، متوحدان في النار العظيمة، التي انطلقت تلتهم كل شيء!

وفيما النار تلتهم قصر آخر الملوك الوطنيين للبلاد الكبيرة، كان جند المقدس سره الجنجويد، يغمدون نصالهم في (كجورين) و حاخامات وكهنة ورهبان وراهبات البلدة القديمة والمدينة الزاهية، مشرعين الطريق للدين الجديد!

ثم لم يلبث المقدس سره إلا قليلا، حتى نصب محاكم العدالة الناجزة، في كل ربوع البلدة القديمة والمدينة الزاهية، ليلقى حتفه كل من يشكك في قداسة دمه، أو مشروعية سلطته وسلطانه على البلاد الكبيرة! كان مجرد التشكيك، وليس المقاومة الفعلية، جرما لا يغتفر!

وقداسته كان يرى أن هؤلاء السود، لا يستحقون حتى أن يكونوا مجرد خدم، في بلاط نيافته ذات المقام العالي والدرجة الرفيعة، التي لم ولن يبلغها رسول أو نبي، من قبل أو من بعد!

وان حدث وأصبح أحد أهالي البلاد الكبيرة خادما في قصر سموه، كان ذلك يعد فخرا وشرفا لا يضاهى، حظي به هذا الخادم الفريد! ولهذا فكرة أن يكون صانع الفخار أو الخزين، اللذان بدوا له كشبحين، لا أحد يدري عنهما شيئا.. فكرة أن يكونا معارضين له، كانت تعذبه كثيرا.

إذ يحزنه أن يكون مثل هؤلاء السود البؤساء، أندادا له! فضلا عن كونه يبحث عن شبحين لم يرهما أحد، أو يعرف هويتهما أحد، ومع ذلك يردد الناس أخبارهما وتعاليمهما!

وما كان يؤرقه أكثر، أن لا أحد يعرف هوية اتباعهما، أو عددهم أو إلى أي مدى هم منتشرون، ومدى تأثيرهم على أهالي البلاد الكبيرة! لا أحد بالضبط يعلم الاسم الحقيقي للمقدس سره، فقد سارت عليه الكنية، فقتلت اسمه منذ كان جنديا صغيرا في وطنه البعيد، ما وراء بحر مالح وتخوم الصحراء القاحلة!

وكون سعادته ككل الغزاة، كان طارئا على البلدة القديمة والمدينة الزاهية، رسخ في ذاكرة الناس باسم المقدس سره!

كان قومه ما وراء البحر المالح وتخوم الصحراء القاحلة، قبل وقت طويل يعبدون الحجارة، التي كانوا يشكلونها على هيئة الحيوان أو البشر، بل انهم مضوا بعيدا، حتى صنعوا آلهة من العجوة، يأكلونها عندما يجوعون!!

إلى أن بعث فيهم نبي بتعاليم لم يألفوها!

في البدء حاربوه، ولكن بعد أن التف حوله الفقراء والأرقاء، الذين كانوا يشكلون سواد الناس الأعظم، ثم لحق به القلة من علية القوم المستنكفين! مضت رسالته تشق دروبا جديدة، في تلك الصحراء القاحلة!

كان قوم المقدس سره، الذين بدأوا يعانون الاضطرابات والقلاقل، التي ما فتئت تنخر في كيان دعوتهم التي استبيحت، فتحولت إلى ملك عضوض، فأخذوا يسعون جاهدين -وقتها- لإعادة تماسك أطرافهم، والتوسع في أراض جديدة، فرموا أبصارهم خلف أفق البحر المالح الملون،

و أرسلوا قبائل بكاملها، لتختلط بشعب البلاد الكبيرة، وتنشر الدعوة للدين الجديد.

بل حتى الهاربون من نزاع الحكم أفواجا أفواجا، جاءوا إلى البلاد الكبيرة.

وهكذا انفتح الطريق، فجاء الدعاة، قطاع الطرق، قادة الثورات المجهضة، وزعماء الملل والنحل، والفرق الدينية السرية، وقبائلهم وأشياعهم، البدو الباحثون عن الكلأ والماء هربا من الصحراء القاحلة، التجار الذين لم يعد لبضائعهم طلب، الصعاليك والفاشلون الباحثون عن مجد سهل، والشعراء الفاشلين والمجانين الذين تاهوا في دروب الصحراء ومسالكها، والعشاق المحطمين بهجران حبيباتهم الخائنات!..

جاءوا جميعا من كل فج عميق. من ثغور االبحر المالح، من صحراء دار الريح، من أسفل النهر، زرافاتا ووحدانا، جوعى منهكين من طول التسفار ووعثاء الطريق، وجوههم معروقة، أجسادهم نحيلة يابسة، تكاد لا تبين داخل اسمالهم المتسخة..

ورحب بهم أهل البلاد الكبيرة المسالمين، في أسافل وأواسط النهر..

رحبوا بكل هؤلاء وأولئك، استضافوهم، وداووا جروحهم وزوجوهم بناتهم واخواتهم، وهكذا بدأت تتشكل نواة لشعب جديد، ملامحه تختلف قليلا عن بقية أهل البلاد الكبيرة، في الصعيد ودار الريح، الذين لم يختلطوا عميقا كغيرهم من الأهالي أواسط النهر و سافله، إذ كانوا منذ البدء ينظرون إلى هؤلاء الغزاة في ريبة وحذر! ولد المقدس سره، بعد انتشار الدين الجديد، بعدة قرون، ومنذ طفولته الباكرة.

كان باد الذكاء، لماحا.. وميالا للقيادة.

لذا عندما اشتد ساعده وقوي عوده، سأل قومه تزويده بجيش قوي

لغزو البلاد الكبيرة، فأجابوه وأطلق على هذا الجيش اسم (الجنجويد)، أي راكبي الجياد!

وبسقوط (البلدة القديمة والمدينة الزاهية) اللتان كانتا تشكلان عصب البلاد الكبيرة وسرتها، بدأ عهد جديد، افتتحه الجنجويد باستعباد و اقسار الناس، على تبني الدين الجديد! أو القتل!

فلم تنج من الاغتصاب سوى نسوة قلائل، كن قد اخترن الموت! وبعض الرجال، الذين فضلوا الهروب إلى فيافي دار الريح أو غابات صعيد النهر، للبدء في وطن جديد، بعيدا عن قبضة الجنجويد!

وقتها كان الخزين الجد قد أحكم تسوير طائفته، الحافظة لتاريخ الأسلاف وعقائدهم، والمبشرة بتعاليم صانع الفخار الأكبر!

وما أن دانت للمقدس سره البلاد الكبيرة، حتى أخذ رجاله ينشرون الكثير من القصص الغريبة، والأساطير التي تجعل منه كائنا خارقا، أكثر من كونه بشري محدود القدرات، كغيره من البشر: يأكل ويشرب وينام، ويفشل في مضاجعة النساء أحيانا، ويتغوط ويتبول ويخاف، ويحزن وربما يموت بسبب مرض لم يجد له الحكماء علاجا، بسبب عاداته الغذائية الرديئة، أوتناوله طعاما فاسدا!

هذه الوقائع المأساوية المتتالية والسريعة في حياة أهالي البلاد الكبيرة، أوضحت مدى الخلل الذي يعانيه عقل المقدس سره،الذي بالمقابل كان يرى حياة أهالي البلاد الكبيرة، ككتان نسجه نساج رديء على منوال شابته الكثير من العيوب، ما يجعلهم أقل مقاما من قومه خلف البحر المالح، وتخوم الصحراء القاحلة!

وفي الحقيقة أن معتقدات المقدس سره وجنجويده، كما رآها صانع الفخار، ليست سوى ظاهرة سوء فهم عميق للتاريخ ولمعنى الوطن! والحياة والطبيعة البشرية، بسبب الصحراء القاحلة التي ولد ونشأ فيها المقدس سره وجنجويده!

إذ كان المقدس سره برأي صانع الفخار، وهو يرى سيوف الجنجويد تقطع وتبتر أيدي الأهالي وأرجلهم ورؤوسهم، ولا تكف عن جلد ورجم النساء والرجال، تجسيدا لمبلغ و منتهى الفظاعة وسوء الظن والقبح، الذي لا حدود له!

وبقدر ما أحب الجنجويد المتوحشين (الشعر)، بسبب وحشيتهم وقسوتهم، نتيجة الانفعال بسبب غياب الحكمة، كان أهالي البلاد الكبيرة الطيبون، يحبون (الحكايا) و (القصص) التي يتداولونها في العشيات، وهم متحلقين حول (تقابة) نار، يغلي فيها ورق الشاي القوي، المخلوط بلحاء شجر طيب الرائحة.

وبينما يصب الصبية الشاي، كان أكبر الرجال سنا يحكي، عن جور الزمان وعن الاسلاف وعن سواهم!

كانوا حول هذه النار، كثيرا ما يتداولون سيرة البعض من الأهالي، الذين بدأوا يتسللون من البلدة القديمة والمدينة الزاهية، يلحقون بمن سبقهم هربا من الجنجويد!

كانوا يغادرون طوعا، مفضلين الحياة في أرض جديدة، بدلا عن العيش هنا كرعايا، مغمورين ومذلولين ومفقرين!

وفيما يتداول الشيوخ حول نارهم في العشيات أحزانهم، كان الجنجويد، الذين لم يأتوا بنساء من قومهم، قد طاب لهم المقام..

وبمرور الوقت كانوا قد أنجبوا الكثير من الذكور والإناث، من الجواري الذين ملكوهم باليمين. وأصبح هؤلاء الذكور قوة ضاربة في طليعة جيش الجنجويد المتنامي، الذي أعيد تشكيله في أربعة فرق: الفرسان، الجنجويد، الهجانة، وحرس المقدس سره، الذين هم أولئك الذكور، أبناء النساء السبايا من آباء جنجويد!

وبينما كانت نواة الشعب الهجين، الذي أنشأه الجنجويد تتنامى، كان الجزء الأكبر من شعب البلاد الكبيرة الأصل، يتعمق فيه الخوف على الأرض والتاريخ والثقافة!

بعد عشرات السنوات من سلالة المقدس سره، سيأتي حاكم عام، يقرر أخيرا طرد ما تبقى من سكان أصليين، لم يطالهم التهجين، ليلحقوا بـ الذين فروا إلى الصعيد ودار الريح باكرا، مفضلين الحياة مع وحوش الغابات والوديان الضارية، على مساكنة الجنجويد الغزاة! عندما يتأمل صانع الفخار الجد حياته وقتها، يتساءل عن قيمة سنوات عمره، التي دفنها عاما بعد عام، ماذا تعني لقاء لحظة واحدة مع الكنداكة، التي ماتت تحت تعذيب الجنجويد؟!

الكنداكة اللطيفة، الرقيقة، المنذورة منذ ولادتها للموت! حملت كل مقومات الفناء، لكنها بقيت كذكرى ليست عابرة، بل مقيمة، عكس حياتها التي عبرت كطيف، عندما أبلغه الخزين في آخر لقاء لهما، بموتها على يد المقدس سره، الذي شطرها بسيفه شطرين!

شعر لحظتها بحياته تنحدر وتتدهور. كان قد بدأ يفقد الرؤية الواضحة، وهكذا تخلى عن الكثير من الخطط واختفى!

وصيفا تلو آخر، وشتاء تلو آخر، كان احساسه بالضعف والقنوط

يتضاعف، ولم يتمكن من استعادة توهجه الا بعد سنوات، عبر عذاب شهد فيه أقصى درجات الألم، ومحنة ظلت تتغذى من مصدر التفكك الغامض، الذي لم يستطع الوصول إلى حدوده..

ومن نهايات هذا التمزق، بدأت ذاته تلتئم مرة أخرى وتتجدد.

كانت غريزة الحياة في داخل الخزين تتجدد، و شيئا فشيئا يشفى من الجرح الغائر، الذي خلفه رحيل نينا، فيسبح في أحضان أم عيون، الجارية الحسناء التي أهديت له، وكانت تلك هي اللحظة، التي تعرف فيها على نفسه وقدراته، فأدرك أن كل ما مر به، بمثابة ثروة ومصدر إلهام، وزاد لمجابهة الجنجويد!

الآن يقف الخزين الحفيد موقف كان قد وقفه صانع الفخار نفسه، في عزلته ووحدته والصمت الكلي، الذي تشرنق داخله، ظلت تتناهى إلى مسامعه لسنوات طوال، صرخات استغاثة كل الذين أجلاهم الحاكم العام من ديارهم، فيما كانوا ينظرون لحقهم في هذه الأرض وتاريخها، كنوع من الخطيئة القاتلة.

موقفه مما حدث ويحدث، كان هو الشيء الوحيد الذي سيكون الرهان، على كونه حقيقة وليس وهما! من بين هذه الاستغاثات، تظل استغاثة نينا جرحا متقيحا..

نينا التي لن يتمكن من نسيانها ليتذكرها!

كان الخزين يدرك أن ليس بإمكانه، تفادي حرب الحاكم العام بالمغادرة معها. وفي الوقت ذاته لم يكن يريد لها البقاء هنا، حيث يكاد ينعدم الأمل. كان بقاءها يعني أن تكون نقطة ضعفه، وربما ضحية لهذه الحرب اللعينة، وهو ما حدث بالفعل! لكن لم يكن يعلم بسرعة حدوثه، وعلى هذا النحو بالذات!

- قتلتها حمى النهر، فرموها فيه..

أخبره أحد أتباعه بعد رحيل الفلك بأيام، في البدء بدى كمن أصابته صاعقة، ثم أخذ يبكي وهو يردد:

- بل قتلها الجنجويد!

كان لا يريدها أن تتورط، دون أن يعي انها اصلا متورطة حتى النخاع، و أنه ليس الهدف الوحيد للحاكم العام!

فكل هؤلاء واولئك، الذين فاضت دموعهم طلبا لحقهم في الارض او التاريخ او الاختيار الحر، لما يريدون، أو طلبا لادنى احتياج: القوت. كل هؤلاء هم نينا..

يدرك الآن وبوضوح أكثر من أي وقت مضى، أن من دموعهم جميعا، يتشكل نبع أزلي، سيظل يحرك جذور النهر، ليفيض ويغسل هذه البلاد الوسخة!

الأمسية التي سبقت انقضاء آخر يوم، من المهلة التي منحها جند الحاكم العام للأهالي، للمغادرة. كانت أمسية غير معتادة! فرغم أن الوقت كان بدايات الشتاء، الا أن الجو كان حارا حرارة غريبة.

بدأ كل شيء في البلدة جنائزيا، فاندفع الأهالي إلى النهر، كأنهم يهيئون أنفسهم للدفن في القبر! مدفوعين برغبة الاغتسال من الدنيا بحلوها ومرها! غاصوا حتى أعناقهم!

ما ظلوا و اثقون منه، بعد انقضاء سنوات طويلة، أن تلك الأمسية، كانت هي بداية لنهاية أحلامهم الكبيرة، التي لطالما حلموا بها!

وما أشبه الليلة بالبارحة، فهذه الأمسية لاتختلف كثيرا، عن أمسية قديمة، ضاربة في غور التاريخ، عندما دهم الجنجويد الغزاة الأوائل،

أسلاف جند الحاكم العام المدينة الزاهية، التي تتاخمها البلدة عند منحدر النهر.

في تلك الأمسية الخانقة، سقط آلاف القتلى تحت سنابك خيل الجنجويد، الذين لم تكف سيوفهم عن القطع والبتر، الا فجر اليوم التالي، الذي انجلى عن غموضه دفعة واحدة، كاشفا عن نهر من الدم والدموع!

وقف حارسا على باب (القيقر، الخندق) أشد الجنجويد بأسا وقسوة! لتفتيش الأهالي المذعورين، اثناء هروبهم من المدينة، فامروا بالبقاء في مكان يتوسط المسافة، بين باب القيقر و البلدة عند منحدر النهر! حيث عسكرت فرقة من الجنجويد.

وترك الأهالي المرهوبين يواجهون قدر بائس، يحاصرهم الجوع والبرد ليلا، وحر غريبة كتلك الحر، التي أصبح معها مناخ البلدة القديمة، جنائزيا بعد مئات السنوات التالية.

استولى الجنجويد الغزاة، على بيوت الأهالي واستهلوا محاكماتهم لهم بالقول:

- حيث أنكم كفرتم برسول المقدس سره، حل لنا دمكم، ولا سلامة لكم في الدنيا والآخرة، إلا بتسليمنا أموالكم التي خبئتموها. وسواء اذعن الاهالي او لم يذعنوا، لم يكونوا يسلمون من الضرب بالسياط، ألف سوط للرجل ونصفها للمرأة، مع توثيق اليدين والرجلين والإلقاء على الارض، وصب الماء البارد على أجسامهم في الليل!

مما رشح من مخطوطة معهد جار النبي جارو، أيضا.. بعض المعلومات، التي تشير إلى أن الجنجويد، عندما داهموا ذلك البيت، الذي اشتبهوا في أنه البيت الذي يختبيء فيه صانع الفخار أو الخزين، الذي كان كل ما

يعرف عنه وقتها، انه شابا أربعينيا فارعا، وفي و اقع الأمر، أن الغالبية العظمى من أهالي البلدة القديمة، هم اربعينيون فارعون!

كان الجنجويد قد قتلوا كل أفراد أسرة ذلك البيت، الذي فتشوه فلم يجدوا فيه مالا، لكنهم عثروا أثناء بحثهم،على صبي صغيركانت أمه قد خبأته، فأخذوه وهددوا بقتله، ان لم تدلهم على المكان، الذي توجه اليه صانع الفخاروالخزين، فقد كانوا و اثقين، أن الإثنان كانا يختبئان هنا! فتوسلت امه وشقيقاته، وهن يلقين بأنفسهن على الارض، تحت اقدام الجنجويد يستعطفون لكي يتركوه دون جدوى، إذ احتد احدهم:

- كيف نتركه ونحن لم نجد لديكن لا ذهبا ولا فضة؟

ثم التفت إلى رفاقه صائحا يأمرهم:

- اقطعوه ثمانية قطع وأعطوا كل واحدة قطعة منه، أن لم يعترفن بمكان الخزين وصانع الفخار. القى أوامره ومضى غيرآبه، ككل جنجويد التاريخ..

وبعد أن يئسوا من العثورعلى صانع الفخاروالخزين، قاموا بأخذ تلكن الفتيات وامهن سبايا، وفي الحقيقة لم تكن المرأة أما لهؤلاء الفتيات، إذ كن ضيفات غامضات حلن عليها، قبيل مداهمة الجنجويد بقليل!

كانت الضيفات هن الكنداكة وأم عيون، وسبعة من راهبات الكنيسة القديمة، هربن أثناء مداهمة الجنجويد للكنيسة وإحر اقها، بعد أن علمن قبل وقت ليس بقصير، أن الجنجويد بدأوا في إحراق كل معابد اديان البلدة القديمة، وشرعوا في البناء محلها معبدا لإله المقدس سره، الذي أحضروه معهم على صهوات خيولهم و نياقهم..

- انه اله حرب! اله قتل!

بكى صانع الفخار، عندما أخبره الخزين، ولم يكن كلاهما يعلم منذ وقت كاف، أن الكنداكة كانت بين الفتيات اللائي سباهن الجنجويد، وبالنتيجة، عندما علم الخزين أن المقدس سره شطرها بسيفه شطرين، بعد أن رفضت أن تسلمه نفسها، اجتهد في إيجاد طريقة لايصال الخبر لصانع الفخار!

في الوقت نفسه كان الجنجويد، قد القوا القبض على رجل دلته عليهم عيونهم، بأنه الخزين، لم يمهلوه طويلا، قتلوه! وفي الحقيقة ذلك الرجل الأعرج مهلهل الثياب، الذي علت الثياب التي يرتديها و (الشقيانة) التي ينتعلها عشرات الثقوب والرتوق، مستحيل ان يعتقد احد، انه الخزين! ما لم يكن مختلا ك الجنجويد!!

كل نساء وفتيات البلاد الكبيرة، اللائي رفضن الدين الجديد، قتلن أو أخذن سبايا، لم تنجو سوى اللائي اعلن صراحة إيمانهن بدين المقدس سره! الأمر نفسه حدث مع الذكور، حتى الأطفال الصغار الذين أنشئ لهم ملجأ كبير، تمت رعايتهم فيه رعاية عسكرية خاصة، وفقا للخطط العسكرية الطموحة للمقدس سره، ببناء جيش قوي لا يهزمه شيء!

بنات الأعيان العذراوات، وزعن على قادة الجنجويد للوطء، فكانوا يتبادلونهن فيما بينهم، حتى لا يعرف نسب الجنين المحتمل لأي منهم!

- أي نوع من الأديان هذا! بكى الخزين، بكى صانع الفخار!

الفتيات اللائي انهكتهن المضاجعة، ولم يمرضن كبعضهن فتمردن، كن يضربن ضربا شديدا وتحلق شعورهن، بعضهن فضلن الموت على الاغتصاب المتكرر فانتحرن!

كان اصغر الجنجويد شأنا، تجد في ملكه أكثر من عشرين فتاة، يحل له

وطئها والتصرف فيها كما يشاء، فكل جنجويدي كان يظن عن قناعة تامة، انه ينفذ إرادة دين المقدس سره!

وكان المقدس سره ذات نفسه، يفعل هذه الأشياء نفسها، ويدبج المنشورات لشرعنتها، بل مضت منشوراته تحرم وتحلل وتضع القوانين لكل شيء، بدءا بتحريم (التنباك) الذي أدمن الأهالي كيفه، انتهاء بتحليل الرق.

بل استهل عهده بمنشور، ألغى فيه أي زواج أو عتق، قبل احتلاله البلاد الكبيرة!

فكل شيء قبل الاحتلال باطل، بل أن أهالي البلدة القديمة، الذين تزوجوا بشرائعهم الموروثة، ما هم الا ابناء زنا، علي آبائهم أن كانوا أحياء، عقد قرانهم مرة أخرى بشريعة المقدس سره!

الاحتلال الجنجويدي لم يكن فاصلا بين عهدين فحسب، بل بين عالمين مختلفين تماما في كل شيء!

وهكذا مضى المقدس سره، يزوج الاسرى والاسيرات، الذين دخلوا في دينه زيجاتا جماعية، كما نتج عن وطء جيشه نساء البلدة، مواليد بعدد الرمل! وبمرور الوقت أصبحت دماء الجنجويد، جزء من نسيج الدماء المتنوعة لأهالي البلاد الكبيرة، وهكذا بدأت شعوب جديدة في التشكل، قاسمها المشترك الجنجويد!..

شعوب هي ثمرة الاحتلال، وتتكون تحت جنح ظلامه الدامس!

قبل ذلك بوقت طويل، كان الجنجويد قد تمكنوا من اعتقال رجل شكوا انه صانع الفخار أو الخزين، وأوثقوه بحبال القد وساقوه إلى أمير الجند، يحيط به نحو مائتي من الجنجويد الغزاة، شاهرين سيوفهم وهم يتصايحون!

- يا عدو رب المقدس سره، يا كافر..

لما وقف صانع الفخار بين يدي أمير الجند، الذي كان وقتها قد فرغ من فرز السبايا، و انشغل بتحسس فتاة فاتنة عارية، تحاول ستر سوءتها براحة يدها الراجفة، والدموع تتساقط من عينيها، بينما هو يمعن النظر في مفاتنها، و يقلبها يمنة ويسرى، وهي تقول بصوت واهن كتمه النشيج و النهنهة:

- رضينا بقضاءك ياربي.. رضينا بقضاءك يا ربي.. وكانت تتساءل في دخيلتها:

- هل رب الجنجويد الغزاة هو الرب نفسه الذي لطالما دعته؟!

لماذا ربهم قاس كل هذه القسوة؟ لماذا هو جبارا هكذا على عباده المساكين المغلوبين، الذين لا يملكون من أمرهم شيئا؟

كانت اسئلتها عفوية، وهي تستعيد كل تعاليم صانع الفخار، عن الحب والرحمة والتكافل والحرية والحق في الحياة والأمان والسلام! كانت تقارن هذه التعاليم، بمنشورات المقدس سره، وهي تبيح للجند حرق القرى في دار الريح البعيدة، التي وطأتها سنابك خيله، فتو اترت أخبار الفظائع بما يفوق ما حدث في البلدة القديمة والمدينة الزاهية، آلاف المرات. من قتل الرجال واغتصاب النساء، وتهجير الأهالي البسطاء، وإحلال فلول قبائل الجنجويد التائهة في الصحارى الواسعة محلهم، بعد أن هربت ناجية بحياتها، من ديارها ماوراء بحر مالح وتخوم الصحراء، بسبب صراع ملوكها على الحكم!

- لم يعد لأهل البلاد الكبيرة وطن.

تنهد صانع الفخار، وهو يرسف في قيد حبال القد..

- ما عاد لهم وطن!

بعد أن فرغ أمير الجند من شأن الفتاة، التفت يسأل الحراس وهو يشير إلى الرجل المقيد بحبال القد:

- من هذا الكافر؟

الجنجويد الذين نظروا إلى بعضهم البعض مرهوبين، تطوع أحدهم يرد في تلعثم:

- نشتبه انه صانع الفخار أو الخزين. قال في غضب والشريقفز من عينيه:

- أو؟؟!!

اطرقوا عيونهم إلى الأرض، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة. فيما كانت أصابع يده تحك لحيته في توتر. مرت لحظات قليلة كأنها الدهر كله، قبل أن يرفع سبابته تجاههم:

- خذوه عذبوه، ولا تدعوه حتى يعترف من هو، أو يدلكم على مكانهما!

ضربوه ضربا مبرحا، حتى فصدت السياط جسمه، وسال الدم يغطيه، ثم تركوه مسجيا على تراب محبسه، غائبا عن الوعي! ولأيام طويلة ظلوا يخرجونه كل ليلة، يستجوبونه ويعذبونه، وهو يصرخ:

- لست الخزين، لست صانع الفخار ولا أعرفهما أو أعرف مكانهما. ما أنا إلا عبد فقير على باب الله!

- اي اله تعني؟

- وهل هناك أكثر من اله؟ أعني الهنا كلنا، الذي لا اله غيره. اله المقدس سره!

فيبتسمون في غبطة، لكن لا يتوقفون عن تعذيب الرجل:

- اعترف من انت يا عبد السوء.

فيغيب الرجل في إغماء عميق.. فلما استيأسوا أشار أحدهم بأخذه، إلى أمير حرس المقدس سره:

- انه داهية من دواهي الزمان، ولابد أن يجد حيلة لمعرفة ما تريد معرفته من الرجل. فكروا قليلا، ثم أذعنوا لمشورته..

وبعد أن أفاق الرجل جروه إلى فناء واسع مزدحم بجمع غفير، ما أن اقتربوا حتى سمع قعقعة السيوف، وهي تجرد من أغمدتها. أدخلوه فرأى نحو أربعين جنجويديا، و اقفين بمحاذاة الاتجاهات الأربعة للفناء الواسع، الذي كان زنخا مشبعا بر ائحة الرطوبة والعرق. الجمته الدهشة، وهو يرى تابعه الخزين ذاته!

كانت يده على مقبض سيفه، و يقف على منبر خشبي متآكل، يبدو أنهم جلبوه من الكنيسة المنهوبة، قبل أن يحرقوها!!! فابتلع ريقه الجاف، وشعر بجرح في حلقه!

كان الجمع الغفير ملتف حول رئيس جند المدينة الزاهية، الذي كان مشنوقا ومثبتا إلى شجرة السنط اليتيمة في المكان، في وضع غريب إلى حد بدا معه أشبه بفزاعة، كتلك التي يضعها الأهالي، في حقولهم لإخافة العصافير، أكثر من كونه جثة جندي من جنود البلاد الكبيرة! كان حافيا عاريا ليس عليه سوى بقايا (عراقي) ممزق أشلاء، عينيه بارزتان تكادان تقفزان من محجريهما، و انفه وفمه مشقوقين، وعلى جسده خثارات دم جاف وكدمات وشقوق وحروق، وكما لو أن كل ذلك لم يكن كافيا، إذ كان واضحا من خصيتيه المتدليتين بين ساقيه، أنهم خصوه أثناء التعذيب!! وكان الذباب يغطي جسمه، في هيئته المشنوقة تلك!

كان كاحليه رغم كل شيء لا يزالان يرسفان في الأغلال، والجنجويد الجند

لا يفتأون يخزون جثته بأسنة سيوفهم ورماحهم، حتى لم يعد في جسمه موضع يخلو من طعنة رمح أو ضربة سيف، والدم يسيل من جسده، وهم يتبادلون الضحك والسخرية! إنتفض جسد صانع الفخار بشدة، وهم يرمونه تحت قدمي الخزين!

- مات أمير جند المدينة الزاهية كما يموت البعير!

تنهد صانع الفخار وهو يهمس لنفسه في أسى، ويتطلع إلى وجه الخزين، الذي قال موجها حديثه للجنود الجنجويد الذين جاءوا به:

- من يكون هذا الرجل؟

- نشك في أمره، أن يكون هو الخزين أو صانع الفخار! همهم الخزين وهو يتأمل ويفكر:

- الخزين أو صانع الفخار.. خذوه إلى تلك الغرفة واعطوه شربة ماء و انصرفوا تطلعوا في وجهه بدهشة لا يصدقون ما يسمعون، فكرر بحزم:

- نفذوا ما أمرت به، لي اساليبي التي اجلي بها الأمور..

التفتوا بحركة لا ارادية إلى جسد أمير جند المدينة الزاهية المسجى على تراب الفناء، كأنهم يقولون:

- وهل تختلف اساليبك عن أساليبنا!

وكانه قرأ ما يدور في أذهانهم، فقال بصوت أشد صرامة مما سبق:

- جربتم معه التعذيب أما أنا سأجرب كل شيء! نفذوا أوامره وهم يهزون رؤوسهم و انصرفوا!

رمى صانع الفخار الحفيد بذاكرته بعيدا، يستعيد ذكرى صانع الفخار الأكبر، في موقف مماثل عندما جاءوا به ليصلبوه، فأوصى الخزين برمادة:

- إذا رأيتهم قد احرقوني، فخذ من رمادي شيئا واحتفظ به بعد ثلاثة أيام يفيض نهر البلدة فتكاد تغرق، فيأتون اليك متضرعين بين يديك، فخذ الرماد الذي عندك وارمه في الماء وقل له:

- ارجع من حيث جئت بحق رب صانع الفخار

ثم عانقه وبكى معه بكاء شديدا، إلى أن أغمي عليهما وسقطا على الأرض، حتى ظن الناس أنهما ماتا، وعندما افاق قال:

- احببت الموت، ولو اردت لصحت بهم صيحة لا تبقي لهم أثر!

١٥

في وقفته تلك، كان ردفها قد أصابه في مقتل، وهي تدنو ناحيته، يتفتت تحت قدميها طين القيف الهش، وجسمها تتناثر عليه حبيبات الماء كندى الفجر، وهي تنحدر من نهديها حبات حبات!

تهادت تجاهه ك طاووسة تغوي طاووس، فاحس لحظتها، بالبلدة كلها تغرق، في أضواء هادئة. تنبعث من القمر الزاوي، تحت سحابة متقطعة، لينعكس على ريشها الملون! فتأوه:

- هذا ردف عجيب! لا ضمير له! يصرع العشاق ولا يكترث!

عندما صافحته نينا، ضغط الخزين على يدها بشدة، كان يعتصر كفها اعتصارا، يتغذى من تيار صاعق يبقيها إلى الابد، في حضن كفه! يود لو يستبقيها.. رغب في عدم افلاتها.. ولم يكن يدري كم لبثا هكذا!

كل ما يدريه أنه منذ تلك اللحظة، لم يفارقها أبدا، كانا دائما في كل مكان معا، وكانت أنوثتها كل يوم في حالة اكتمال للتو واللحظة، بكرا، متوحشة..

وهما في كل مكان خلفهما قرص الشمس، أو ضوء القمر الشاحب، وهي عارية تستحم في النهر.. تدعك تكوراتها وفجواتها بعناية، ثم تطفو في ظلال من الضوء الخجول، وهو ينعكس على صفحة الماء!

مشهد واحد متجدد في كل يوم، في كل لحظة، بشكل دوري..

يبدأ وهي عارية، تخلع ثيابها قطعة قطعة، وينتهي وهي تدنو منه ببطء، وتراب القيف الهش يتهشم تحت قدميها الصغيرتين! مشهد واحد دوري لا يفتأ يطارده، فلا يصدق انها لم تعد هنا..

في هذا العالم المهدد بالزوال!

١٦

يستعيد صانع الفخار، كل لحظة أغفلتها الذاكرة مرارا وتكرارا. وهو في حالة من الصدمة، لا يصدق أن الكنداكة اجمل راهبات معابد الكون والبلدة القديمة، قد رحلت عن هذا العالم القاسي، وتركته وحده لمجابهة قدر رهيب!

لا يستوعب حتى الآن أن ذلك الفجر البعيد، كان فجر الوداع الأخير!

لازال مسكونا بذات إحساسه بها، منذ الوهلة الأولى، التي كمن فيها يتأمل جسدها، تحت الضوء الشاحب، وهي عارية تستحم..

لحظتها استقر في أعماقه شك عظيم، في قدرة جسده على الاقتراب من أنثى سواها.. الإحساس ذاته ظلت تؤكده له، وهو ينتظر سيرها نحوه..

كانت تمضي نحو قدرها بخطى حثيثة، وكان كأنه ليس هنا!

ترى هل سيشعر جسد الخزين بأم عيون، التي أهداها إياه أمير الجنجويد؟! هتفت به:

- زوجتك نفسي..

فدنا منها كعوليس وهو يدنو من كاليبسو الجميلة، في مساء قديم، موغل في القدم، كذاك المساء!

دنا الخزين من ام عيون خطوتين، فدنت منه أقرب من حبل الوريد. تماهيا في بعضيهما، كليهما لم يكونا هما، بل شيئا أشبه بروح صانع

الفخار الأول، وهي تتأمل عالما لم يولد وخلق لم يخلق بعد، وتفكر في هذا الخلق، الذي ستغير رأيها فيه بعد خلقه، فتقرر استبداله بخلق جديد!

طوق الخزين نينا، فيما كان صانع الفخار في مساء بعيد يحيط خصر الكنداكة، بذراعيه المعروقين ويقبلها بنهم، يلتهم في شفاهها ثمرة الرغبة السرمدية، التي ولدت في الازل! وإحدى يديه تنزلق ببطء.. تتسلل تجوس في عشبها الندي!

ويجيبها:

- زوجتك نفسي..

ويطفو جسداهما في هالة من التوتر والانفعال الحميم، وكل الأحاسيس الغامضة، التي تسربت من روح صانع الفخار، لتغطي فضاء البلدة الوادعة عند منحدر النهر، تغطي على صوت الجنجويد!

وفيما هو يشدها إليه يرجع الصدى مرددا:

- زوجتك نفسي ييي..يي..

فيرتج جسداهما كزلزلة اكتمال الخلق، ثم يرتخيان، ويهمدان، تفوح منهما رائحة الثمرة الأزلية، ومزيج القرنفل والقرفة والحبهان والعرق!

اغتسلا في ماء الجاسر المحموم، ثم تهالكا على قيف النهر، كطوابي البلدة القديمة الموعودة بالشجن والجنون! هذه البلدة التي تواجه في تلك اللحظة، دونا عن كل لحظات التاريخ، نوعا غريبا من الخرائف الغزيرة!

حيث انتشر البعوض والناموس في ارجائها، وتوالدت الضفادع والذباب بسرعة رهيبة، ووحدت سيمفونيات نقيقها وطنينها بصورة مفزعة، تكاد تقود الأهالي إلى الجنون!

هذا النوع من البعوض الذي انتشر في البلدة، كان نوعا غريبا على الأهالي، لم يألفوا ما اتسم به من جرأة وخبث، إذ كانت كل أربعة بعوضات، يرفعن أطراف الناموسية، ليتمكن بقية السرب، من الدخول لنهش اجسام الأهالي النحيلة!

لم يعد أهل البلدة قادرين على النوم، كانوا عندما يلتقون يكشفون عن أجسادهم، الملأى بالانتفاخات الصغيرة الحمراء!

كان حال الأهالي ليلا خوض حرب ضروس مع البعوض، جربوا فيها كل الوسائل والسبل، بدء بتغطية كامل أجسادهم، بزيت الخروع سيء الرائحة، انتهاء بحرق الحطب المزيج من العشر واللعوت!

لم يتركوا شيئا لم يجربوه!

إذا كان ذاك هو حالهم في الليل، في حربهم الخاسرة مع البعوض، فإن حالهم نهارا لا يسر، إذ عكر الغبار الكثيف مزاجهم!.. نوع غريب من الغبار، ظل عالقا في فضاء البلدة، يتنفسونه ثقيلا مع الهواء!!

وكانت ذرات هذا الغبار الذي ظل عالقا في فضاء البلدة لوقت طويل، ترسم أشكالا غريبة، أشبه بكائنات غير معروفة، وحتى السحب كانت تشكل أشكالا غامضة! وكل شيء في البلدة القديمة كان غريبا، كأنه إيذانا بحدث خارق!

حتى عندما طلع فجر البلدة، واشرقت الشمس، فاجة بأشعة خيوطها الذهبيه الشحيحة، السحب السوداء. بدت لهم ليست شمسهم ذاتها! كانت هزيلة صلعاء، حتى أن ضوءها فشل في ازاحة الظلام والعتمة، التي ظلت تبرز من ابواب البيوت الموارية، والأخرى المتاكية بعود أو (ضقل).

كما أن ديكة البلدة تغير حالها، إذ أخذت تغادر البيوت إلى الغابة

المجاورة، ولا تعود الا بعد مغيب الشمس، وتظل على حبال الغسيل، التي علقت عليها نسوة البلدة (شرموط البقر)، تصيح حتى الصباح، دون أن يغمض لها جفن أو ينال منها تعب!

الحمام والعصافير التي بعثر صياح الديكة قش أعشاشها و وكناتها، غادرت البلدة القديمة تحمل فراخها بمناقيرها!

حتى الدجاج أصيب بالذعر، بينما انفتحت كل زرائب المواشي، وأخذ الثغاء يختلط بالنهيق بالخوار، بكل شيء! فيما بدا للجميع اختلاط تام للحابل بالنابل!

كانت تلك هي المرة الأولى، التي شوهد فيها طيفا شبيها بـ صانع الفخار يجري من بيت لآخر؛ وهو يصيح:

- ورب صانع الفخار لا تهلعوا، أنها إرادته العلية، فربما من الخير لكم أن تغادروا، نحن مسيرين، وهو الذي ليس سواه، لا يقودنا إلا إلى الخير، ستمضون إلى ارض أجمل وأخصب تضربون، فيها جذوركم وتبدأون من جديد!

الاهالي الذين أخذ الذهول بتلابيبهم، ظلوا يحدقون مسمرين في الهواء، الذي انقشع فيه الطيف، كأنه لم يكن!

١٧

على خلاف الرواية الرسمية عن الخزين طبلة أم جبو الجد الأول، التي فك طلاسم مخطوطها معهد جار النبي جارو، ثمة رواية شائعة لا تفتأ الجدات في الليالي المقمرة، يحكينها لاحفادها، على وقع رشفات الحليب الدافئ.

تقول الحكاية أن الخزين الجد، هو الناجي الثاني من ذلك الطوفان، الذي تواتر إلى مسامع أسلافهم خلال مئات السنوات، ولم تفصح هذه الحكاية عن هوية الناجي الأول، التي ظلت مجهولة وغامضة! رغم أن هذه الرواية نفسها تلمح، إلى أنه ليس سوى صانع الفخار! لا أحد غيره! هذه الحكاية تنفي عن الخزين الجد، كونه معلما لصانع الفخار، وتؤكد أن طائفة صانع الفخار، وجدت قبل ميلاد الخزين، و أنه عندما نما وبلغ الصبا، التحق بطائفة صانع الفخار، ونهل من معارفها وعلومها، ولازمها لسنوات طويلة، إلى أن اختفى بطريقة غامضة، مدفوعا بتوتر وقلق عاصفين، لم يبح بسره لأحد!
لكن البعض رجح أنه نوع من الحزن الكلي، بسبب فقده المفاجيء لنينا، وهو الفقد نفسه الذي دفع بصانع الفخار للاختفاء، حزنا على الكنداكة اجمل راهبات البلدة القديمة!
وفي الحقيقة لم يستكن الخزين للحزن طويلا، إذ استغل جهل الجنجويد

بهيئته فتمثل هيئتهم، ملتحقا بفرقة حرس المقدس سره، حيث تقلبت به الأيام، إلى أن أصبح قائدا لاحدى الحاميات الخاصة بالمقدس سره! على حدود دار الريح!

والتي ترحيبا به كقائد جديد للحامية، أهداه أمير الجنجويد على دار الريح جارية تدعى أم عيون، تضاهي نينا حسنا وجمالا!

كان الجنجويد قد استرقوا والدا ام عيون اللذان كانا قد دفعا بها إلى الرهبنة مبكرا، ولكن أعتقهما المقدس سره، بعد ان اخبرته ام عيون بأمرهما، فلم شملها عليهما، وأصبح والدها من خاصة الأمير الجنجويدي على دار الريح!

ورغم أن الخزين كان يدرك، انما أهداه الأمير إياها، لتكون عينا عليه حتى وهو في مخدعه، إلا أنه لم يأبه لهذا الأمر! وكان العبد السابق والد الجارية، قد استاء من فعلة مولاه الجنجويدي، فأخذ يقول في المجالس:

- اذا طئت بنتا بملك اليمين افلا تكون تحت حر بدلا عن هذا العبد العنين؟

وتناهى إلى الخزين ما كان من خبر ابيها واهلها، فلم يوقع بهم أو ينكل، بل وأجزل لهم العطايا، ودس عليهم من ينقل اليه اخبارهم، فجاءته الردود، ان فعله أسعدهم بل أن أم البنت اشاعت:

- الخزين فوق الأحرار درجة.. بل أن والدها لم يفتأ يكرر في المجالس:

- فعل الفتى أصله!

الخزين كان يدرك منذ وقت مبكر، كيف ومتى يجب أن يستغل ذكاءه لكسب ود الناس، وتجنب عداءهم. ولم يكن ليعجز عن رعاية الخيط الفاصل الدقيق، بين الطاعة بسبب الخوف او الحب!

فكانت هيبته في نفوس الناس، نوعا من الهيبة الغامضة، بسبب الغموض الذي أحاط شخصيته!

وبقدر ما كان الخزين الحفيد نقيا تجاه ذاته، مثله مثل آل الخزين عبر التاريخ، كان يدرك أن الحقيقة ستظل على الدوام محظورة من قبل الجنجويد الآن، كما كانت محظورة عند أسلافهم، فالجنجويد ظاهرة أزلية في كل عصر، تتخذ شكلا مختلفا..

مباديء الخزين الحفيد المستمدة من أسلافه، هي مباديء صانعي الفخار، الذين تبعوهم عبر آلاف السنين، وهي معارف مستمدة من الينابيع السرية لكنوز الحقيقة..

تلك الينابيع التي لا تنضب، والتي سيظل الحكماء و المناضلين والثوار والمتمردين، يغترفون منها عبر التاريخ والأجيال، فصانع الفخار الذي ألهم بها، لم يكن نبيا كأولئك الأنبياء، الذين اجتمع فيهم مزيج غريب من المرارات، وقسوة الحياة عليهم، منذ طفولاتهم الباكرة، والرغبة في تخطي هذه المرارات، التي تتجدد كجرح متقيح، يضفي على قسوة حياتهم، التي عاشوها ألما وعذابا عظيمين!

فرغبوا في السلطة كتعويض عن كل هذه القسوة والمرارات، التي حاصرت حياتهم لسنوات طويلة، تدفعهم رغبة ممضة لهدم العالم، وإعادة بنائه من جديد، إذ ابدا لم يكونوا اصلاحيين!

كانوا ثوريين حازمين، لا يتورعون عن خوض الحروب لفرض إرادتهم!

لم يكن مثل هؤلاء الأنبياء، الذين في الحقيقة صنعتهم مجتمعاتهم، ولم تصنعهم تلك القوى الغامضة غير المرئية، التي زعموا أنها بعثتهم! ولهذا السبب بالذات، لم يكن راغبا في هداية أتباعه، الذين لم يسعى لإقناعهم

بشيء لكي يتبعوه، إذ فوجئ بهم يتبعونه دون استئذان، بل مضوا يقرأون حياته ويدونونها، ويضيفون إليها ويحذفون منها ما عن لهم، حتى تكونت لديهم تعاليم يكاد لا يتعرف عليها!

فيتساءل:

- أحقا هذا أنا أم شبه لي؟ أم شبه لهم؟!

وعلى الرغم من سعيه الدؤوب، في النأي عن غوايتهم، إلا أنهم ظلوا يبحثون عنه، حتى عندما يكون بينهم! فيتساءل:

- أين أنا؟

الخزين الحفيد مستلهما كل هذا الارث الروحي، المتوارث عبر أسلافه لآلاف السنين، مضى متأملا حال العباد والبلاد، تحت نير حكم الجنجويد.

فلم يؤاخذ المقدس سره الجنجويدي كفرد بما يعتقده عن نفسه أو أصله الشريف المزعوم، إذ كان يدرك جيدا أنه سواء ما كان يفعله المقدس سره أو جنجويده، ليس أمرا يتعلق بتشوهات لحقت بهم وحدهم، بل نتاج مئات السنوات من الأفكار والعقائد الفاسدة.

ولكن في الوقت نفسه كان يشعر بالرغبة في الانتقام من المقدس سره وجنجويده، عندما تناهى إلى مسامعه استغاثة الناس، منبعثة من كل مكان حوله، ومن داخله.

يسمعهم وهم يستيقظون، على وقع أوامر الجنجويد. تأمرهم بمغادرة البلدة القديمة والمدينة الزاهية..

الأهالي الذين كانوا ينفقون جل أوقاتهم، قبل انقضاء المهلة التي منحهم إياها الحاكم العام، في زيارة قبور موتاهم وقتلاهم وشهدائهم في كل

الثورات، التي خاضوها معا.. كتفا بكتف مع احفاد الجنجويد الأوائل! على تراب هذه البلدة، لطالما مشوا و(تقالدوا)، وعشقوا خطى حبيباتهم، وركضوا مبتعدين عن الكلاب الشرسة، التي تركض خلفهم.. أليست هذه ذكريات؟ وما الوطن سوى الذكريات؟ كيف يطلب منهم أن يتخلوا عن ذكرياتهم؟

الكلام الذي قاله ذلك الطيف البعيد في لحظة مشابهة لاسلافهم، عندما أمرهم الجنجويد بركوب الفلك والمغادرة، الكلام (الني) هاهو يسقط الان.. هاهنا؛ دون أن يتمكن من دخول عقولهم. سقط على تراب البلدة وهو يطرق مسامعهم؛ دون أن يتمكن من الولوج إلى أفكارهم وقلوبهم!

كانوا قد انتابتهم حالة من اليأس والإحساس العميق بالعجز، لذا أخذت اللامبالاة تتسرب إلى نفوسهم، فلم يأبهوا للمناخ الغريب، الذي أحاط البلدة كالسوار، غير مبالين بهذا الخريف الغزير، الذي بدا كأن مزاريب السماء انفتحت على مصاريعها، لتصب غضب ازلي!

اذن اصبحت مشاعرهم واجسادهم، غاية في الانهاك والإحساس بالتعب!

ومع ذلك لا شاغل لهم، سوى زيارة قبور الموتى، حيث يمكثون في المقابر، بقية نهاركل يوم، وعندما يأتي الليل يتقدمهم شيخ مسن من اتباع صانع الفخار بفانوسه، وهو يتوكأ على عصاة معقوفة، زعم أنها من شجرة اللعوت نفسها، التي صلب على عيدانها صانع الفخار الأكبر!

لم يكن في تجمعهم يسمع سوى صوت التنهدات البالية، وربما همس واهن متناهي الأصداء:

- يا رحمن يا رحيم..

جميعهم لديهم قتلى أو موتى او شهداء.. جميعهم يعانون عذاب الفقد والذكرى، وجميعهم يلعنون جند الحاكم العام، الذي قسمهم إلى شعبين وبلدين، دون أن أن يأبه لدمهم المتوحد، وذكرياتهم الواحدة!

كانوا يتجولون بين القبور، يتقدمهم الشيخ المسن و جفونهم تفيض بالدموع، واصواتهم الناشجة تتحشرج، كأنها نزعا أخير! بعضهم كان لا يزال يحدوه الأمل، في رب صانع الفخار، وبعضهم لم يتورع في التعبير عن فقدانه الثقة في هذا الرب، الذي شاءت مشيئته أن ينتزعوا من أرضهم.. أرض أجدادهم التي لا يعرفون لأنفسهم وطنا غيرها!

هكذا إذن على وقع اقتراب خطى الرحيل! كان الخزين يشعر بالبلدة كلها، بكل خفقاتها وسكناتها واهاتها داخله! كأنها تنبش بحثا عن شيء ما أضاعته في غفلة من الزمن! شيء ثمين لا يمكن أن يوصف أو يعوض!

كأن البلدة كلها داخله، يشعر بنبض قلوب الناس بالدماء، وهي تغلي في عروقهم كأنها خرير ماء، على جدول وعر!

يشعر بهم وببكاء اطفالهم الرضع الذين يبحثون لحظتها عن أثداء أمهاتهم اليابسة، كان يسمع حتى الهمس المجروح لعشبة معونة النيل الحزينة، قبل أن تلامس رائحتها خياشيمه.

إذن كان الخزين يرى ليس كما يرى الآخرون، ويسمع ليس كما يسمع الآخرون، ويعلم أشياء كثيرة، أكثر من غيره ويعلم أنه يعلم! الخزين لم يكن ناسكا، لكنه يشبههم.. كان نحيلا، كثيف الشعر أجعده يبدو من مظهره في أسماله البالية، كأن روحه لن تنتظر لتغادر غروب شمس اليوم التالي! وفي حقيقة الأمر كان هذا المظهر خادعا -وفقا لما قالته نينا- إذ كان الرجل قويا، استمد البأس من وحوش الغابات التي عاش بينها منذ طفولته،

عندما اعتزل الناس و ابتعد عنهم، عاش حياته يرعى مع الظباء ويلاعب الفهود و أفراس النهر والتماسيح.
وكانت هذه الحياة نفسها امتدادا لميلاد صانع الفخار الأول وبعثه فيه هو الخزين الحفيد.
مثلما صانع الفخار خلف وحيد مثل كل صانعي الفخار، فكل أسلافه و سلالته ينجبون ابن وحيد لاغير!
فسلالة صانع الفخار ظلت دائما تعتمد على آل الخزين الذي يتمثل دوره في إسناد جهود صانع الفخار! الباحثة عن نقاء مطلق حوله، فكان يتبعه ليرشده إلى مواطن الجرح، ومواضع التقيح في أزمنة البلاد الكبيرة، التي تعود دائما إلى ما انتهت إليه من قبل، كحلقة شريرة لا تنتهي!
إذن كان الخزين هو الخادم المخلص و المؤتمن الوحيد على أسرار صانع الفخار..

وهكذا فيما كان الجنجويد يحرقون قصر الحاكم العام، إثر معركة قصيرة مباغتة كان صانع الفخار الحفيد يلوذ بمعتكفه بعد أن أعياه الحمل الذي ينوء به ظهره، وهو ير اقب أنانية أهالي البلاد الكبيرة، و انحطاطهم، وهكذا مضى إلى معتكفه المجهول يتأمل ما آل إليه حال القوم ويدبر ويفكر!
في اللحظة نفسها كان الخزين الحفيد يختفي في مكان غير معلوم!! وهكذا غابا عن مشهد البلدة القديمة في تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ البلاد الكبيرة، مخلفين وراءهما الاستغراب و الكثير من الأسئلة مثل: هل نال منهما اليأس والقنوط لدرجة إعفاء نفسيهما من مسؤوليتهما تجاه

هؤلاء الناس الفقراء الحزانى الذين لم يحتل الجنجويد أرضهم فحسب بل كيانهم وذكرياتهم ايضا!

وفي الحقيقة منذ اللحظة التي احتل فيها الجنجويد البلدة القديمة والمدينة الزاهية، ونشطوا في البحث عن صانع الفخاروالخزين، دون أن يعثرا لهما على أثر، كان كليهما صانع الفخاروالخزين يعد العدة بطريقته! فشل الجنجويد في العثور عليهما، ذلك أن قلة مخصوصة فحسب هي التي تعرفهما أو التقت بهما، فاهالي البلدة القديمة رغم علمهما بوجود صانع الفخار والخزين، الا انهم لا يستطيعون الزعم أنهم رأوهما حقا، فعادة تصلهم تعاليم صانع الفخار من اتباع الخزين والذين رأوا الخزين على الأقل لم يكن عددهم يتجاوز أصابع اليد الواحدة وحتى هؤلاء لم يقتربوا منه كفاية..

احدهم فقط رآه مصادفة يشرب الماء بكفيه في احدى الليالي المقمرة، التي دأب على الخروج فيها إلى صديقاته حوريات النهر ليتسامر معهن حول العوالم التي لا يدركها البشر!

فاقترب منه وتعارفا ومنذها حمل ذلك الرجل تعاليم صانع الفخار، الذي لم يره بعدها أبدا، وصارلذلك الرجل أتباع كثرمن أهالي البلدة القديمة لا يكادون يعرفون بعضهم البعض إذ كان ذلك الرجل تابع الخزين يلتقي بانتظام كل منهم بمفرده، وكل منهم يلتقي آخرين بانتظام فردا فردا..

كان نظاما محكما ذاك الذي وضعه الخزين، حمى هؤلاء من أسر الجنجويد، فمن يؤسر مهما عذبوه لن يجدوا عنده ما يفيد عن الآخرين فهو حقا لا يعرف سوى اثنين فقط وباسماء ليست اسمائهما الحقيقية: الذي يلتقيه ليأخذ منه والذي يلتقيه ليبلغه بما أخذه أووصله من صانع الفخار!

الكنداكة اجمل راهبات معبد البلدة القديمة، كانت هي الوحيدة التي تعرف صانع الفخار أكثر من أي شخص آخر.

فمنذ تناهى إلى سمعها ما أشاعه ذلك الرجل عن علاقة الخزين بحوريات النهر، حتى انتابتها رغبة شديدة في رؤيته، لتصل عبره إلى صانع الفخار، فأخذت تتسلل في الليالي المقمرة خفية من قساوسة وراهبات الكنيسة القديمة، بعد أن يهجعوا إلى مر اقدهم، وتقصد النهر تختبيء خلف قيف أو أكمة سعدة أو دغل متنائي صغير كثيف من نباتات الجروف الزاحفة! وقمر أثر قمر ملت اصطياده فتخلت عن حذرها وباتت تستحم في النهر، عل احدى الحوريات تبين فتسألها عن الخزين..

إلى أن كانت تلك الليلة وهي تستحم في النهر دون أن تخلع ثيابها، دون أن تدري أن صانع الفخار كان ير اقبها طوال هذا الوقت دون أن يفضح مكانه منذ أقمار عديدة!

لم تكن تدري أنه رآها منذ أول مرة بدأت فيها تأتي للنهر في الليالي المقمرة، لكن أبدا لم يفصح لها عن نفسه من مكمنه الخفي، إلى أن كان ذلك اليوم الذي مدت فيه الراهبة الجميلة الكنداكة يدها وشرعت تخلع ثيابها ينتابها شعور قوي بوجوده حولها في مكان ما! شعرت بوجوده طاغيا، يبعث فيها كل الأحاسيس التي قمعتها تعاليم الرهبنة ونساك المعبد القديم، ومع أول قطعة من ثيابها رمتها على قيف النهر، صحت مشاعر منسية، مشاعر قوية عميقة مدفونة في جب التعاليم.

وقطعة تلو أخرى كان الماء يتقدم يغطي صدرها وكان صانع الفخار على بعد رمشة عين و انتباهتها! على صهوة جواد أبيض ذا عرف ذهبي وعينان خضراوان، والجواد يصهل صهيلا ناعما وهادئا وخافتا، أشبه

بآلة موسيقية، عميقة الشجن، تتحسس ضوء القمر، وتهب تموجات عشبة معونة النيل رائحة شجية!

اخترق صانع الفخار ببصره ماء النهر، يحتضن جسمها العاري الذي كان يرتعش فيخفق الماء وينخفض كدقات قلب تحملها دواماته الصغيرة المتموجة التي تهتز لها عشبة معونة النهر الطافية في ترقب متحفز!

كان ظمأ جسدها العاري تحت الماء متوترا ومؤثرا، وكان كل عصب او شريان او وريد في جسم صانع الفخار منتفخا وموتورا. كلاهما غاب لحظتها في تلك الينابيع السرية الغامضة التي لا حدود للهفتها وشوقها.. تلك الينابيع التي لا تنطفئ نيرانها الأزلية إلا وتشتعل لتحرق كل ما يجابهها في لحظة واحدة وخاطفة، وما أن تنطفيء حتى تتجدد كطائر البلدة القديمة الذي يحترق لينبعث من بين رماد احتراقه أشد عنفوانا وقوة!

١٨

مع قرب انقضاء المهلة التي منحها المقدس سره للاهالي بدأوا ينشطون في نقل حاجاتهم إلى الفلك الرابض على قيف النهر. الذين اختاروا البر حملوا أمتعتهم على ظهور الدواب، وكانوا جميعا هؤلاء وأولئك قلوبهم تتلفت وهي تقول في أسى:

- وداعا بلدتنا القديمة.. وداعا موطن الأسلاف والتاريخ والماضي المجيد بعد عشرات السنوات ستبقى من ملحمة الرحيل ذكرى شاحبة لمئات الآلاف من البشر انتزعهم الحاكم العام من أرضهم، كما انتزعها سلفه الأكبر المقدس سره من قبل! قبل مئات السنوات، فبللت قبل مغادرتهم دموعهم الأرض.. اختلطت بطبقاتها العميقة وسطحها، واصبحت جزء من كل نبات ينبت أو مطرا يهطل أو بركانا ينفجر..

أصبحت دموعهم جزء من جذور النيل في مده وجزره، وسيدون الخزين في مخطوطاته المشفرة ما رأي في الجلاء الأول على عهد المقدس سره، كما سيقرأ جادين جانو الآن على عهد الحاكم العام عن دموع النساء اللائي يرضعن أطفالهن حليب الأرض الذي استمد ملوحته من الدموع، وهن يلقمن أطفالهن أثدائهن الشحيحة، مزيج الحليب والدمع في مقابرود ام جبو التي تردد صدى نشيج الوداع الأخير فيتنهد:

- ما أشبه الليلة بالبارحة!

ثم يبدأ هو الآخر يدون حكايا الذين ماتوا على ظهر دوابهم، و النساء والعذارى و الأطفال والصبية والمسنين الذين ماتوا جوعا وحزنا في الطريق إلى الصعيد فتم رميهم إلى أفراس النهر والتماسيح..

سيضع هامشا زائفا عن الخزين الذي اصبح امير حرس المقدس سره، و ابقى صانع الفخار في منزله ومضى يستأذن المقدس سره في أمره!

البلدة القديمة عند منحدر النهر، لم تكن امتدادا للمدينة الزاهية فحسب، بل مستودعا محصنا لأسرار البلاد الكبيرة، فرغم كونها بلدة وظلت عبر العصور مجرد بلدة، إلا أنها كانت ثرية بتاريخها وأهلها الحميميين بمشاعرهم الدافئة وقصص حبهم وحكاياهم الاسطورية، عن أجدادهم الذين كأبطال الأساطير، الجميع لديهم جد نبيل و بطل أسطوري ينحدرون منه! الجميع دون استثناء، حتى تخال أن البلاد الكبيرة هي بلاد ابطال الاساطير!

ومع ذلك عندما تناهى إلى مسامع أهالي البلدة القديمة، نية الجنجويد في الاستيلاء على أموالهم.. أموال البلاد الكبيرة، هربوا أموالهم إلى الجوار البعيد أسفل النهر، وما وراء صحراء دار الريح خلف تخوم ذلك البحر الذي يقترن بالمحيط الواسع الذي يحتل جزءا كبيرا من يابسة هذا الكوكب البائس!

بينما غيب البعض أموالهم تحت أرض الصعيد حيث الغابات والوحوش وحيث تنشط طائفة صانع الفخار المتمردة، التي كانت قد نظمت صفوفها وتوشك على الدخول في حرب مفتوحة مع الجنجويد!

وهكذا الذين قتلوا على يد الجنجويد، قتلت معهم اسرار أموالهم المفقودة! التي حاول الجنجويد عبثا التوصل إلى مكانها!

وعلى أية حال كان أمراء الجنجويد لا يقدمون للخزينة العامة كل ما نهبوه أوعثروا عليه، إذ يكتفون بتسليم قدرضئيل ويحتفظون بالباقي!

نعم سيضع جادين جانو هامشا زائفا حتى عن اللائي متن بين ذراعى عشاقهن في بلاد كبيرة أخرى على الضفة الأخرى من مخطوطه هو جادين جانو، الذي سيشفره ويخبئه في مكان لن يعلمه أحد!

١٩

قدم صانع الفخار وهو صامت، ولسانه يتمتم بكلمات مبهمة، أمره الجلاد:

- مد يدك اليمنى..

فمدها، فقطعها والقاها أمامه، فلما وقعت على الارض، اخذ ابهامه يكتب مكررا كلمة واحدة، في مزيج الدم والتراب: الحق! وأمره مرة اخرى:

- مد يدك اليسرى..

فمدها، فقطعها ولما وقعت على الأرض، كتبت وسطاه:

- الحق!

ثم أمره:

- مد رجلك اليسرى..

فمدها فقطعها، ثم قال اليمنى فقطعها، و سمع الناس صوت الخزين يهتف:

- المحبة أولها حرق، وأوسطها غرق واخرها قتل!

ثم حز الجلاد راس صانع الفخار الأكبر، واحرق جسده وأعضائه المقطوعة، في كومة واحدة، والقي برماده في نهر البلدة القديمة. وتجمع أولياء البلاد الكبيرة،عند جبل بعيد، سيعرف بعد عشرات السنوات، بجبل الأولياء، وبكوا بكاء شديدا، وقرروا خراب البلاد الكبيرة، لكن طيف صانع الفخار، فج العتمة ولاح لهم وهو يقول:

- لقد سامحت..

ثم غادر..

كلمات مثل (مغادرة)، (رحيل)، (انفصال)، كانت تكتسب عند الخزين و (نينا) أو أي عاشقين آخرين، قسوة لا حد لها، وتأخذ معنى مختلفا، كالغدر والخيانة والقتل..

كل شيء يتمزق الآن، حتى الذكريات تبدو غامضة، و أمل اللقاء مرة أخرى أو العودة، يبدو كحلم بعيد، هائم في حرارة مشاعر مضطربة.

داخل كليهما، كانت تصطخب ذات الاسئلة، اذا قدر لهما أن يلتقيا مرة أخرى، هل كانا يجدان البلدة القديمة ذاتها، تلك البلدة التي غادرها كليهما، إلى اتجاه مختلف؟

هل هي نفسها تلك البلدة الوادعة، عند منحدر النهر، حيث يتفرع منه الجاسر؟ هل هي هي بابراج حمامها، ورائحة طين جروفها واعصارها الصيفي، الذي يحمل في نو اته غضب غبار البلاد الكبيرة كلها! ليلقيه على عتبات البيوت الطين والقش، فيكظمه الأهالي! أن كل شيء مثلهما يغادر إلى الأبد!

المغادرين..

المغادرين الذين بقيوا على قيد الحياة، بعد أن وصلوا راجلين أو على ظهور دو ابهم، أو أولئك الذين رست بهم الفلك، في قلب الصعيد، كانوا يعلمون أن داخل هذه الغابات، يعيش احفاد أسلافهم الذين ظلوا عبر التاريخ يتسللون إلى هنا قبل كل جلاء.

احتضنت هذه الغابات عبر مراحل التاريخ المهمشين و كل الهاربين من الظلم والقهروالاستعباد، كما احتضنت المنفيين والذين لم يحد عشقهم للحرية حد.

كان غبن كل هؤلاء وأولئك يتراكم عبر العصور، وارواحهم تصبح ككرات لهب مدمرة لو أطلقت من عقالها على البلاد الكبيرة لأحرقتها شبرا شبرا.. في هذه اللحظة بالذات، التي رمى فيها الفلك مراسيه، جسد لهم صانع الفخار نفسه..

خرج من قلب النهر حوله التماسيح، و أفراس النهر وسمك البلطي العملاق والحوريات صويحباته الوفيات، جميعهم خروا ساجدين على الماء وعندما رفعوا كانت السماء قد صفت، وتلاشى الغبار العالق في الفضاء، واختفى البعوض والناموس والذباب الأخضر، وبدى لأول مرة ضوء الشمس هادئا ورديا ولطيفا!

قبل عشرات السنين وعلى الجانب الآخر من الجدار العازل عند منحدر النهر، فاض نهر البلدة القديمة وطوقها وكاد يغرقها فجاء الناس إلى الخزين فمضى معهم وخاطب النهر:

- ارجع بحق الحق. إنها وصية صانع الفخار!

فرجع!

أحمد ضحية

مانشستر، ايوا سيتي، فيلادلفيا

٢٠١٦/١٤/٢

فهرس

١ ..... ٥
٢ ..... ١٠
٣ ..... ١٢
٤ ..... ١٦
٥ ..... ٢٣
٦ ..... ٣١
٧ ..... ٣٤
٨ ..... ٣٦
٩ ..... ٣٩
١٠ ..... ٤٣
١١ ..... ٤٨
١٢ ..... ٥١
١٣ ..... ٥٥
١٤ ..... ٦١
١٥ ..... ٧٩
١٦ ..... ٨١
١٧ ..... ٨٥
١٨ ..... ٩٥
١٩ ..... ٩٨

عن الدار ومشروع النشر الحر

دار لوتس للنشر الحر هي أول دار نشر حرة يملكها كل كاتب، تعتمد مبدأ النشر الحر من خلال مشروع طموح يهدف إلى تخطي عقبات النشر ومساعدة الكاتب للنشر بطريقة تمنحه الحرية الكاملة وكل الحقوق والصلاحيات للتعامل مع كتابه دون استغلاله مادياً أو معنوياً، ودون احتكار لمجهوده الفكري في عملية تجارية.

هي مشروع خدمي وليس تجاري، تدعم الكاتب الموهوب وتسانده، تحاول الارتقاء بمستوى الأدب وتهدف إلى احترام الكاتب والقارئ من خلال نشر كل ما هو جيد دون الإساءة لشخص، أو أشخاص، أو مؤسسات، أو أفكار، أو عقائد، أو ديانات، أو أنظمة سياسية.

دار لوتس للنشر الحر

مصرية مغربية، تأسست في مايو 2017

www.lotusfreepub.com

إصدارات المشروع

قلم عطر
وعادت ريما
مثل ليلة حب
وكأني أحبك
عالم قراطيس قراطيس
أوتار
دماء على ثوب أبيض
أموات فوق الأرض
بقلم رصاص
حريق على الجسر
القدرات السحرية
العالم لن ينتظرك
عندما ينتحب الياسمين
مرايا
البوهيمي
أيها الشباب لا تفقدوا الأمل
خريف مريم
حلم صريع
مُتيم
يوميات رجل محسود
هدوء ما قبل الانفجار
الموؤودة
أنين المساجد
صوت السماء
طبق كشري
أحببتك بعين قلبي
ما لا تعرفه عن الهجرة
الأيام الأخيرة
موانئ الرغبة
١٠٣
زمن الحنين
أوراق على دفتر الحنين
أحببتُ شبحاً
حكايات من التاريخ
كلمات ربي (ج١)
وشم على كتف الحياة
كيتو ياكيفو
يتيمة بأبوين
مائة عام على كوكب الأرض
نبوءة عاشق
رصيف نمرة ٢
قمر الدم
حنين الحنين
نساء وقيود
الآهات المكبوتة
عن الذي استدان ليشتري الشقاء
كتبتُ أحبك

فلاكا
الآدم وهي
أحلام فجر
مفاهيم إدارية لثالث ألفية
عاشق الضي
أنامل قصصية
مملكة روح
ماهر وسماهر وبئر النسيان
الضال
خليج بلا وافدين
في ليلة شتا
الشيطانة وعصا الجحيم
أنين وردة
لا تتعجلي الرحيل
بدون
من الأكاديمية إلى الفيلا
بردية رع (ذهاب وعودة)
كاتب ونساء وعبث
جيهينا
مذكرات خادمة من مونار
بعيداً عن العالم
قمر الدم (العودة)
سئمت الغربة
هكذا ضعنا
حلم
شيء من قلبي
قطوف وحروف
عائدة من الموت
شياطين السموم
حوار في الأفكار
وأد الزهور
أغاني البادية
الفراشة البيضاء
مدينة حرف
عذرية ما قبل الواحدة صباحا
حواديت مدينة الرحاب
الضحية
غيمات حبر وحب
كهف الجحيم
الحبيب المستحيل
تنمية التفكير الابتكاري للطفل
المنهج الإصلاحي
نفيش
ورد وشظايا
ولوج
الفن مين يعرفه
كريتوس

عهد
نبض حرف لا يخون
عبد اللاه
ساكني الكهوف
أخبرت البحر عنك
أحرفي تتراقص
لا تحزني
حلم عاشق
إحساس درويش
أقلام حائرة
خشوع بمحراب الحب
قمر الدم (رحيل الآلهة)
أرض الفيروز
عبرات ضاحكة
أنا يحيى
نظم المعلومات المحاسبية
حكاياتي المحروسة
حروف من قلبي
على الأعراف
زواج افتراضي
رجماً بالغيب
ألمانتا
خواطر مع الريح
شمعة وقلم أحمر
أسلوب العدول في القرآن الكريم
الفستان الأزرق
سيجار ولص ومأذنة
الحب المفقود
القيامة الوردية
كلمات متقاطعة بالشمع الأحمر
لماذا رحلت؟
جدال
التقارير المالية
موسم التوت
عيث
سلسلة المحاسب المتميز - ج١
هل ستغفر لي
سفاح المدينة
ناروبري
حبيبة أمها
التيسير في علم التأسيس
همسات ونسمات
الملاك الأسود
ملكوت السلطانة
أنات عاشق
ساعة من الزمن
زمان غادرنا

رقة النسائم
سبعة أحلام
في انتظار ألمد
نداء القلوب
درب الحكايات
ضجيج البحر
من تربة الورد خلقت
شهوات العقل
قطرات منثورة
أكروفوبيا
خِدر مسلوب
دروب ملتوية
سوط الذكريات
الأخيذة
المأدبة
سيناء أرض العبور
الذكاءات المتعددة
دكتاتورية الحب
الفراشات لا تسكن القبور
تذكرة سفر
وخشعت قلوبهم
وطن الجومانجي
نموذج بايبي البنائي
المدينة الهادئة
السفينة
رشفة عشق
المسكالين
حرف تايه
حروف نابضة
الراقدون فوق التراب
أيقونة حروف عربية
ولاد الشيخ
فضفضة
كالبحر يتنفس موجا
بائعة اللبن
مركب شراع
غشاء حضارة
عظماء في الظل
الوصايا
معك دائما
نون وياء
اليمني
عندما يفوح الياسمين
عنوان مجهول
ترانيم
من بعد غياب
الرحيل إلى الداخل
ليالي باريس الحزينة
هكذا تكلم أبي
النحو الميسر
قيد الماس
أرض دي بلو

طرقتُ باب هواكِ
لحظة داخل إنسان
الذين أخفوا الشمس
أقلام نابضة
حكايا منتصف الليل
برواز على جدار القلب
كبير العيلة
وصمة عار
خربشات كاتب مجنون
اغتصاب أعشاب البحر
في ظل الحبر - ج١
أصعب فراق
للحب أكتب (أحمد وأحلام)
للحب أكتب (نادر ونورهان)
للحب أكتب (فارس ونادين)
اعرف دينك (ج١)
علماء صاروا شهداء
ضفاف
تأشيرة حياة
مجانين لا يدخلون الجنة
وجوه عابرة
امرأة خرافية
فيلم كرتون
أحوال منطقة أزواغ
محاولات
أربعون عام من الفقر
حطام زاحف
فوق السحاب
كلمات الحياة
إعصار الدم
العشق المنتظر
احترف فن كتابة الرواية
بذور الدم
حديث إلى النفس
موشور اللا متناهية
قصائد على خد الورد
عازف على ضفاف الشوق
وإني أشتهي وصلا
وانفرطت حبات السحر
هذا ما حدث بالفعل
انتبه إلى يمينك لعله يسار
ماذا علمتني الأيام
قهوة سادة
ثم أشرقت الشمس
دين السياسة
عيونك دربي
في جحر الأرانب
النارية
في الحافلة
نساء على ضفاف الحلم
تغريدة الروح والدم
ديوان الحب والحكمة

خفقات قلب
زهرة الصحراء
في ظل الحبر - ج٢
على ضفاف الذاكرة
محسن المصدوق
إسراء - أصفار العهد القديم
وعلينا السلام
انتقام الشر
الأحلام الوردية
أنت الحياة ودونك الموت
رسايل بحيص
ميراث الماضي
بداية حياة
سلة التفاح
فضة
قانون الحب
على الهامش
بين الجدران
سرطانية
العملاء
حنايا الروح
غربة حرف
غدا يوم جديد
أروقة الحنين
إحساس محمود
أنين سديم
الأتينيو
طلسم عشق
على شرف المحبرة
رباعيات
معزوفة حرف
في ظل الحبر - ج٣
أفول الأوهام
حديث الروح والقلب
أرض الأحلام
ملوك وتيجان
داون ٢١
فين عصايتك
من برلين إلى مارلين
حبيبتي أميرة البحار
رسائل أحرقتها العواصف
أفكار للتأمل
الجني العجوز
أحببت قمرا
أرض الأجداد
قلوب من الجنوب
بداخلي غصن زيتون
كلام ابن عم حديت
عذراً أيتها الخنساء
فليبق الأمل
لا سكاكين وجع في هذه المدينة
سر الملكوت

قرة عيني
عيناك
ياء .. سين
بداية جديدة لكل أم
وقتي من ذهب
القائد الصغير
سمير وهدفه النبيل
لأنك مني
قابلتك في المترو
قبة الحياة
ماريوه
لقاء غريب
وحينما افترقنا
دوائر
آخر قطرات الحنين
اليوم الأجمل لم يأت بعد
عندما ينطق الحرف
الغروب الأخير
رانت الأيام
أبعد من الكلمات
اتجاه إجباري
قصة عشق - ج١
سجود المشاعر
رسائل لم تصل
بين أجنحة الكاردينال
أسيرة روح
صغيرتي
حكايات رحال
جوري
غربة روح
توءم الشعلة
عادي في بيتها
رسائل منسية
خلف القلوب الصامتة
وقابلتُ شيطانا
تزوجيني أولا
لم أكن أتوهم
ملاك أنت أم بشر؟
العملية كوبرا
ذلك الغريب
عاشقة على سفح القمر
احترس هناك بشر
قسمة ونصيب
مع العصفور
برادلي ولغز أهل النجوم
أزرق داكن
غموض عنوان
مخطوطة إبليس
حبر الألم
متاهات الحجرة المغلقة
طريقي بقربك
موعدنا ذات صباح

بلدة على أطراف العالم
بين طيات الهوى
أسرار الالتفات في سورة النحل
سكين ودماء
رجة عقل
تاج
كأولين
صديقي عرّوب
حكايات شارع العمدة
محاولات في القافية
دور المجمع العلمي العراقي
عاليا يا عرب
حروف مبعثرة
القرآن خارج الصندوق
نعم أحبه.. ولكن
فرس على جبل
لامار
عندما يُعشق الزيتون
أخر الحلم
حواء تحت الهامش
سيكولوجية النهاية
عنكبوت اللهفة
حديث لا يقبل الرحيل
ذات الرداء السماوي
العنقاء
ضمير الشيطان
الحياة في ريفانا
امتنان
سقوط بطئ
السر الأسن
شيفرة القدر
لسان التمساح
ليليان
بطل بلا عنوان
مشكاتي تنزف عشقا
نحو مقاربة جديدة لإعادة التربية
ظلال على جدار الروح
إعدام القيود
أنتِ قدري
هذه هي أنا
التدفق في عروق الذاكرة
من بين عيونك باتولد
صدفة
خواطر قلبية
مبرر نهاتي
موسم الأحلام
حقيقة وما بعدها
صوت وصمت
خواطر الثامنة مساء
أحلام مبتورة
دموع الشتاء
حينما فاض قلبي

حكواتي هذا الزمان
مميز بالأسود
صحفية على هامش الحب
قطوف أندلسية
دراويش وكرامات
قبل النهاية
كبير العيلة ٢
دينامية المشروع الشخصي
كبير العيلة ٢
كما سقطت الفراشة
كانت لنا أيام
مكالمة خاطئة
أغنيات الرحيل
حكايات الشهيد
وجع الذاكرة
الحلبية
كبير العيلة ٣
وتناثرت الأجزاء
العالم متر في متر
دليل المتفوقين في اللغة العربية- ٣
شهقة نبض
اعتذار غير مُجدي
ظلال المرئي
طفولة بلا زوابع
أسطورة قلبي
دلني على السوق
كلمة أم حكاية
بقايا ذاكرة
رحلتي إلى السودان
تدريس اللغة العربية
رحلتي إلى السودان
أطلال أحلام
لم يعد قلبي لغيرك
في ظل الحبر (٤)
جريمة أبريل
الجذور
عالم الشياطين
آمال
دليل المتفوقين في اللغة العربية- ١
دليل المتفوقين في اللغة العربية- ٢
Let›s Learn connect pluse ١-١
Let›s Learn connect pluse ١-٢
سيد الشر
حنين إلى الدهشة الأولى
لظى الثلج
بدون مقابل
رسائل اشتياق
المقدس سره
مملكة في رحم امرأة
الكونتيسة
مصريخ
مالاهياتي

بطعم الحب
طرقات مختلفة
سامح على اسم خاله
ضواحي المدينة
خريف ٢٠٩٤
أشواق مبعثرة
التربية على قيم حقوق الإنسان
جنينة العكارشة
سرابيل الخوف
الحب كما يجب أن يكون
حلمي حلمك
رحلة طبيب إلى الحج
للحب كلمة أخيرة
طيور في سماء الإحساس

www.lotusfreepub.com

رقم الإيداع
000000000000

الترقيم الدولي ISBN
000000000000

الترخيص
مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي - نَسب المُصنَّف
٤,٠ - دولي

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف